أزمات الإنسانيَّة والحل القرآنيّ

أ.د: طه جابر العلواني

من علماء الأزهر، والرئيس المؤسِّس لأكاديميَّة طه العلواني للدراسات القرآنيَّة حاليًا

والرئيس الأسبق لجامعة قرطبة، والمعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ

القرآن والتفسير

أيحتاج القرآن إلى تفسير؟

الحمد لله رب العالمين، نستغفره، ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونصلي ونسلم على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم لقاه، ثم أمَّا بعد:

هذا السؤال تكرر طرحه بعد وفاة رسول الله (ﷺ). فقد مثَّل رسول الله (ﷺ) طيلة حياته القرآن المجيد، فقد كان خلقه القرآن، وسلوكه ونهجه وشرعته ومنهاجه وأحكامه، كلّها تمثِّل تطبيقًا للقرآن المجيد؛ لأنَّه (عليه الصلاة والسلام) كان يتلو على الناس آيات الله (جل شأنه) ويعلمهم الكتاب وما فيه، ويستنبط لهم حكمه، ويبيِّن لهم أحكامه، ويزكيهم به، ويتابعهم والقرآن المجيد يتحرك فيهم، تلاوة، وأحكامًا، وحكمة، وسلوكًا، وتصرفات، وتوحيدًا خالصًا، ودينًا واصبًا، وحكمة تامَّة كاملة، عامَّة شاملة، ويلاحظ (صلوات الله وسلامه عليه) فاعليَّة القرآن في تزكيتهم، التي استحقوا بها رضى الله (جل شأنه) وثنائه عليهم في التوراة والإنجيل ثم القرآن، فقال (تبارك وتعالى): ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ **(الفتح:٢٩)**، فإذا شعر (صلوات الله وسلامه عليه) بأي انحراف في الفهم أو مخالفة في السلوك سارع إلى تقويم ذلك، وبيان وجه الحق والصواب فيه، فكأنَّه (ﷺ) يقوم بالعمليَّة التعليميَّة كلّها، ثم يقوم بالتربية والتدريب، وتنشئة الناس بذلك القرآن المجيد، ويتابع حركته فيهم وتحركهم به، فيزكيهم في أفهامهم، ويتابع

مآلات ذلك في البيئة والمجتمع، فكان الجميع يعيشون في الظلال الوارفة لهذا الكتاب الكريم، يحيون به أفرادًا وأسرًا وأمَّة ومجتمعًا.

وحين غاب رسول الله (ﷺ) والتحق بالرفيق الأعلى شعر الجميع وكأنَّ كل شيء من حولهم قد تغيَّر، أحسوا ذلك في قلوبهم ومشاعرهم، وشعروا بتلك التغيرات في بيئتهم، وبدأوا يحاولون أن يعيشوا على وصيَّة رسول الله (ﷺ) لهم بالتمسك بهذا القرآن، والتشبث به، وتلاوته حق التلاوة، وأنَّهم إن فعلوا ذلك ومسكَّوا بالكتاب وتمسكوا به فسيكونون كمن لم يفقد رسول الله، فالله (تبارك وتعالى) قد نبه إلى ذلك التلاحم بين الكتاب ذي الذكر وبين رسول الله (ﷺ) وذلك في قوله: ﴿.. **فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا**﴾ **(الطلاق: ١٠-١١)**.

إنَّ معايشة الصحابة لرسول الله (ﷺ) منحتهم وعيًا فريدًا بالقرآن المجيد، وجعلهم يدركون مزايا لسانه، وتميزه على لسان العرب المعتاد، وتفرده بنظمه وأساليبه وسياقاته، وبلاغته وفصاحته، حتى كان كأنَّه لسان آخر، في أساليبه، ومزاياه، وتأثيره فيمن يخاطبهم، ويتلونه حق تلاوته، ولم يكن الناس يشعرون بحاجة إلى تفسير يقوم على شرح المفردات، أو بيان الجمل والعبارات، وانقضى الجيل الأول تقريبًا من غير أن يشعر الناس بالحاجة إلى ذلك، وكان قُرَّاء الصحابة وعددهم يزيد عن خمس وستين ومائة إذا حزب الناس أمر اجتمعوا له، وتداولوا فيه، وتدارسوه، واستنبطوا من معاني الكتاب الكريم ما يمن الله به عليهم دون كبير جدل، أو بروز اختلاف، ثم بدأت الشعوب الأميَّة من حولهم تدخل في دين الله أفواجًا، وصار بين المسلمين من لم تكن العربيَّة لسانه الأصلي أو من يجد صعوبة لسانيَّة في نطق بعض ألفاظها أو في فهم بعض العبارات فيسأل ويجيب من صحب رسول الله (صلى

الله عليه وآله وسلم)، ولما كثرت هذه الأعداد شعر البعض بالحاجة إلى التفسير، وكان الذين يتصدون لذلك بعض صغار الصحابة الماهرين في القراءة، والتفسير والتأويل، وكان من أبرز الأسماء ابن عباس، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأم المؤمنين عائشة، وعثمان بن عفان –رضوان الله عليهم أجمعين، وكان هناك بعض المشاهير من قُرَّاء الصحابة الذين اشتهروا بفهمهم وفقههم لتفسير آيات كريمة في أحكام أو موضوعات محددة، في القضاء أو الحدود، أو أحكام الزكاة، وما إلى ذلك، وعن هؤلاء أخذ جيل التابعين وبعض كبار أتباع التابعين، وقد ظهر أول تفسير في القرن الثاني الهجري على يد عبد الملك بن جريج (٨٠ – ١٤٩ هجريًّا) كما ذكر ذلك أبو حامد الغزالي وغيره.

ولم يختف السؤال أيحتاج القرآن إلى تفسير؟ بل برز بشكل أشد، والسبب في ذلك أنَّ القول باحتياج القرآن المجيد إلى تفسير يتنافى ووصف القرآن بأنَّه مبين، وأنَّ آياته بينات، ومبينات، وتيسيره للذكر، إذ كيف يكون مبينًا وبيانًا وتبيانًا ما يحتاج إلى بيان وتفسير؟ وبقي القول بأنَّ التفسير علم موضع جدل ونقاش، وذلك أحد آثار إثارة ذلك السؤال، حتى ذهب الأكثرون إلى أنَّ التفسير لا يعد علمًا من العلوم، وليس له ما عرف بمبادئ العلوم العشرة التي لا يكون العلم علمًا بدونها.

حيث ذكر ابن عاشور في التحرير والتنوير: (هذا وفي عد التفسير علما تسامح؛ إذ العلم إذا أطلق، إمَّا أن يراد به نفس الإدراك، نحو قول أهل المنطق، العلم إمَّا تصور وإمَّا تصديق، وإمَّا أن يراد به الملكة المسماة بالعقل، وإمَّا أن يراد به التصديق الجازم وهو مقابل الجهل وهذا غير مراد في عد العلوم، وإمَّا أن يراد بالعلم المسائل المعلومات وهي مطلوبات خبريَّة يبرهن عليها في ذلك العلم وهي قضايا كليَّة، ومباحث هذا العلم ليست بقضايا يبرهن عليها فما هي بكليَّة، بل هي تصورات جزئيَّة غالبًا لأنَّه تفسير ألفاظ أو استنباط معان. فأمَّا تفسير الألفاظ فهو من قبيل التعريف اللفظي، وأمَّا الاستنباط فمن دلالة الالتزام وليس ذلك من القضيَّة)[١].

---

[١] التحرير والتنوير، ابن عاشور، المقدمة الأولى.

ولذلك ولأنَّ سيدنا رسول الله (ﷺ) لم يسن الكتابة بالتفسير، وما تركه لنا مما يمكن أن يندرج تحت مفهوم التفسير قليل جدًا، ففي صحيح البخاري ما يقرب من أربعمائة حديث، المرفوع منها لا يزيد عن ثمان وثمانين في التفسير، وكانت أم المؤمنين عائشة تنفي أن يكون رسول الله قد ترك تفسيرًا وقالت: "أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان لا يُفسِّرُ شيئًا من القرآنِ برأيِه إلا آيًا بعددٍ؛ علَّمَه إياهنَّ جبريلُ"[٢].

ولذلك فقد حاولنا تبين هذا الموقف الذي أشارت إليه أمنا عائشة –رضي الله عنها- ليظهر لنا أن رسول الله (ﷺ) لم يترك تفسيرا بالمعنى الاصطلاحي أو المشهور للتفسير، لأن سنته كلها وجميع تصرفاته (ﷺ) وأقضيته وفتاواه كانت تفسيرا؛ لأنها تستند إلى القرآن كما قال الإمام الشافعي –رحمه الله: "كل ما سن رسول الله مع كتاب الله من سنة فهي موافقة كتاب الله في النص بمثله، وفي الجملة بالتبيين عن الله، والتبيين يكون أكثر تفسيرا من الجملة"[٣]، فتكون سننه وخلقه وسلوكه وسيرته كلها هي تفسير وتطبيق لأحكام القرآن، ولما ورد فيه. وحين كان يسأل (ﷺ) عن تفسير آية ما كان (عليه الصلاة والسلام) يحيل السائل إلى ما يفسرها من القرآن ذاته.

ولذلك فقد اخترنا أن نقدم لأمتنا اليوم موضوع تفسير القرآن بالقرآن؛ لأننا نعده أدق وأهم أنواع التفسير بحيث يصدق عليه أنه تفسير رسول الله (ﷺ) إذا صح هذا التعبير.

مقدمة في تفسير القرآن بالقرآن:

---

[٢] الراوي: عائشة أم المؤمنين، المحدث: الهيثمي، المصدر: مجمع الزوائد، الصفحة أو الرقم: ٣٠٦/٦، خلاصة حكم المحدث: فيه راو لم يتحرر اسمه وبقية رجاله رجال الصحيح.

[٣] الرسالة، الشافعي (بيروت، دار النفائس، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) ط١، فقرة ٥٧٠، باب العلل في الأحاديث، ص١٣١.

إنَّ القرآن العظيم كتاب الله، أنزله على قلب مُحَمَّد (صلى الله عليه وآله وسلّم) عبده ورسوله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فصَّله الله على علمه الذي أحاط بكل شيء وهيمن على كل شأن، وجعله الكتاب الخاتم لكل ما سبق، وأنزله على خاتم النبيّين والمرسلين ليُحيط بكل جوانب رسالاتهم وما جاءوا به من معتقدات، وليكون الحافظ الأمين للأساسيَّات المشتركة بين النبيِّين، بحيث نجد فيه حنيفيَّة إبراهيم، وصحف وتوراة موسى وألواحه، وإنجيل عيسى وما أنزل الله فيه.

وقد وصف الله (سبحانه وتعالى) كتابه الكريم بأوصاف كثيرة تقارب الخمسين وصفًا، فهو «نور مبين» و«كتاب حكيم» و«صراط مستقيم»، يهدي للتي هي أقوم ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد. وما أكثر الأحاديث التي وصفت القرآن ودارت حول الآيات التي وصف القرآن الكريم نفسه بها. وذلك مما رواه السيد الإمام أبو طالب في أماليه، والحافظ المحدِّث أبو عيسى الترمذي[٤] في جامعه، من حديث الحارث بن عبد الله الهمذاني صاحب علي –كرم الله وجهه– قال: مررت في المسجد، فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على عليّ –كرم الله وجهه– فأخبرته، فقال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أَمَا إنِّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) يقول: **"ألا إنَّها ستكون فتنة"، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله؛ فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه من جبار قصمه الله، ومَنْ ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنتهِ الجنّ –إذ**

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه: (١٧٢/٥) وفي الطبعات التي رقمت فيها الأحاديث رقمه (٢٩٠٨) في باب "فضل القرآن" وقد استدل به صاحب "إيثار الحق..." في كتابه "ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان" ص١٥ ط. دار الكتب العلميَّة بدون تاريخ.

سمعته- حتى قالوا: إنَّا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد، فآمنا به. مَنْ قال به صدق، ومَنْ عمل به أُجِرَ، ومَنْ حكم به عدل، ومَنْ دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم". انتهى هذا الحديث الجليل. وقد رواه السيد الإمام أبو طالب في أماليه بسند آخر من حديث معاذ بن جبل -رضي الله عنه-[٥]، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) بنحوه. ورواه أبو السعادات ابن الأثير في جامع الأصول من طريق ثالثة، من حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- [٦].

---

(٥) ما رواه معاذ عن عليّ جاء في (مجمع الزوائد: ١٦٤/٧).

(٦) والمروي بطريق عمر تجده في "جامع الأصول: الحديث رقم (٦٢٣٢)، لكنَّه ورد فيه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وقال المحقق السيد عبد القادر الأرناؤوط معلقًا "كذا في الأصل – أي: عن عبد الله بن عمر، وفي المطبوع: عمر بن الخطاب" ولم يرجح. وفيه اختلاف يسير عن رواية الإمام أبي طالب والترمذي، حيث جاء في هذه الرواية قول ابن عمر: "...نزل جبريل عليه السلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره: أنها ستكون فتن، قال (أي: رسول الله لجبريل): "فما المخرج منها يا جبريل؟" قال: كتاب الله... الخ وقد أخرجه رزين وذكره ابن كثير في فضائل القرآن بمعناه عقب حديث الحارث من حديث عبد الله بن مسعود، وقال (أي: ابن كثير): رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه "فضائل القرآن" وقال: هذا غريب من هذا الوجه.

وفي سنن الدارمي أورد الحديث في (٥٢٣/٢) برقم (٣٣١٥) عن عبد الله وبدأه بقوله: "إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم..." وختمه بقوله: فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته..". وأما باللفظ الذي معنا فقد أورده الدارميّ في الحديث رقم (٣٣٣١) و(٣٣٣٢). وقد علق المحققان عليه بقولهما: "رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب (١٤) ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (٢٩٠٦) ٥/١٧٢-١٧٣. وأحمد في المسند (٩١/١). وأبو داود الطيالسي وأبو بكر الأنباري في كتاب "الرد" له عن الحارث عن علي. كما في التذكرة للقرطبي ص٤٨ بتحقيقي. قال ابن كثير في فضائل القرآن، ص١١-١٢: "لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات، بل قد رواه مُحَمَّد بن إسحاق، عن مُحَمَّد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة في عهدته، على أنه وإن كان ضعيف الحديث، فإنه إمام في القراءة. والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور، وقد تكلموا فيه، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده (أي: لا من جهة روايته وصدقه)، أما إنه تعمد الكذب في الحديث فلا والله أعلم. وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه" أ.هـ. والآية رقم٢ من سورة الجن.

قلت: وفي بعض الشروح حددت "فتنة الحديث أو الأحاديث" بأنها الافتتان برواية "الأحاديث" أو "السنن" عن تلاوة القرآن المجيد ودوام الرجوع إليه، وبعضهم حملها على الأحاديث والأخبار مطلقًا، ففي كل ذلك انشغال عن القرآن وقد يستفيد القائلون بذلك بأحاديث النهي عن كتابة السنن والتأكيد على عدم الانشغال بغير القرآن. (قال طه): ولكن الفرق كبير بين انشغال بأحاديث نبوية مرفوعة صحيحة تأتي على سبيل البيان بأنواعه للقرآن المجيد، وبين مطلق الحديث. وفرق كبير بين انشغال لطلب بيان والانشغال بها على سبيل الاستعاضة عن القرآن، والاكتفاء بها بحجَّة اشتمالها أو تضمنها للقرآن أو بأية حجة أخرى.

لقد استقرت المذاهب الفقهية في العهد الرابع من عهود الفقه وركدت حالة الاجتهاد المطلق، وعكف المقلدون على مذاهب الأئمة، والكتابة في مناقبهم، والعمل على ضم الناس إليهم كل إلى مذهبه وإمامه. وجعل بعضهم أقوال أولئك الأئمة مثل نصوص الشارع يدخلها التعارض والترجيح والنسخ وما إليها، ففي عصر الصحابة خاصة – عصر الشيخين– لم يشغلهم شيء عن كتاب الله، ولما انتهت سنة أربعين للهجرة برزت اتجاهات فقهية وبدأ الناس ينشغلون بها.

وحين كان عبد العزيز والد عمر واليًا سنة (٨٣ هـ) فكر في جمع السنن، وهو مشروع استكمله ولده عمر بن عبد العزيز، لتكون السنن فقهًا بديلًا عن الفقه الخلافي يرجع الناس إليها لئلا تتفرق بهم السبل الفقهية، ولكن الكثيرين انشغلوا بالسنن عن القرآن المجيد بحجة اشتمالها عليه وارتباطها به، وجعلوا من السنن شواهد لأقوال أئمة الفقه، ثم انشغلوا بفقه الأئمة عن السنن، وصاروا يتداولون أقوال الأئمة ويفرعون عليها حتى بدا وكأن الشريعة هي أقوال هؤلاء الأئمة، بحيث سوغ الكرخيّ الحنفي لنفسه أن يقول: "كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي إما مؤولة أو منسوخة".

قال: ولم يزل العلماء يتداولونه، فهو مع شهرته في شرط أهل الحديث متلقًّى بالقبول عند علماء الأصول، فصار صحيح المعنى في مقتضى الإجماع والمنقول والمعقول.

وقد أودع الله (سبحانه وتعالى) كتابه الشرعة والمنهاج فأنقذنا به من الضلالة، وفتح للعالمين به أبواب رحمته وسُبل هدايته، فحمدًا له سبحانه على هدايته، والشكر له على نعمائه وعنايته، أغنانا (سبحانه وتعالى) بكتابه عمَّا سواه، وكفانا به عمَّا عداه: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (العنكبوت: ٥١)، فنسأله (سبحانه وتعالى) كما أنعم علينا بالقرآن العظيم، والرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلّم) أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يعلِّمنا منه ما جهلنا، ويُذكِّرنا منه ما نسينا، ويجعله حجة لنا لا علينا، وقائدًا لنا إلى الجنَّة، إنَّه سميع مجيب.

هذا القرآن المجيد قد يسَّره الله (سبحانه وتعالى) بفضله ورحمته للذكر، وجعله في متناول العقول والقلوب عندما تتطهَّر، بحيث تمس عقول وقلوب أولئك المتطهِّرين. وفي الوقت نفسه تحدَّى البشر به، وثبت عجزهم وعجز الجنّ معهم وسائر مَنْ خلق الله عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا. ومع التحدي والتيسير جعل الله له حافظًا من داخله، يحرسه من أيّ تغيير أو تبديل أو تحريف، وذلك نظمه الداخلي.

فنظم القرآن هو حافظه وحارسه الأمين و«نظم القرآن» يقوم على دعائم كثيرة لا يمكن لكلام بشر أن يشتمل عليها -كلّها- في وقت واحد. نذكر دعامة من هذه الدعائم،

"أصل: واعلم أن كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو إما مؤول أو منسوخ" !! ومهما يقال في تأويل ذلك أو التخفيف منه فإنه قول جريء يدل على أن التعصُّب للمذاهب قد بلغ مستوى مَرَضِيًّا بحيث صار الأصل تابعًا للفرع، بل محكومًا به. ولذلك فإن إعادة بناء الأمَّة واستئناف شهودها الحضاريّ وشهادتها على الناس لا يمكن أن تعود إليها ما لم تتجاوز هذه الإصابات الخطيرة، وترد الناس إلى القرآن المجيد مصدرًا منشئًا وكاشفًا عن الأحكام وغيرها مما تناوله أو تعلق به فقد أنزله الرحمن الرحيم ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٨). وما اختلف فيه أو عليه لابد فيه من الرجوع إلى السنّة النبويّة التي صدرت عن رسول الله ﷺ ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ (النحل: ٦٤).

وعلى هذا فالمعنى الوارد في هذا الحديث أو الأثر معنى صحيح يشهد له صريح الكتاب وصحيح السنَّة. والله أعلم.

هي وفرة الإفادة وتعدُّد الدلالة وتنوِّعها مع وجازة الآية واشتمالها على أدق وجوه البيان، وأجمل أنواع البديع، يقول الإمام الرازي: "إنَّ القرآن كما إنَّه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، هو أيضًا معجز بسبب ترتيبه ونظم معانيه". ولعل الذين قالوا: "إنَّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك"(٧)، فآيات القرآن الكريم المكنون والعبارات والجمل التي يشتمل عليها لها مستويات متعدِّدة من الدلالة(٨). فلها دلالة بحسب الوضع اللغوي وتركيب الجمل، وهي مستوى من الدلالة يشاركها فيه الكلام العربي كله، ولها دلالة صيغ بلاغيَّة، وهي على مستويات عُليا ووجوه كثيرة، فكلام سيِّد البلغاء المتقنين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) وهو «**أفصح مَنْ نطق بالضاد**» ثم أهل البلاغة من أصحابه وآل بيته نحو الإمام علي —كرم الله وجهه— قد يصل إلى المستوى القريب من بلاغة بعض الجمل والعبارات القرآنيَّة وفصاحتها، لكنَّه لا يمكن أن يصل إلى مستوى بلاغة السورة مهما قصرت، ولا إلى المستويات العليا من بلاغة القرآن المجيد المعجز، ولو على مستوى الجملة، كما في «**الدلالات المكنونة**» أو المطويَّة. فالقرآن الكريم وصفه المتكلم به ومنزله سبحانه بأنَّه: ﴿**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**﴾ (الواقعة:٧٨). ففي ثنايا النَّص وفضاء الآية يعثر المتدبِّرون الغوَّاصون على اللآلئ والجواهر عديمة النظير، وتتكشَّف مكنوناته كذلك عبر العصور، بحيث تبدو كأنَّها لم تنزل إلا في تلك الفترة، وعلى أهل ذلك العصر، وهذه الدلالة ذات مستويات متعددة كذلك، فمنها: دلالة ما يذكر على ما يقدّر، مثل تقدير القول، وتقدير الموصوف والصفة، وما شابه ذلك من فنون وجوانب التقدير. ومنها: دلالة السياق(٩)، وذلك مستوى يدرَك من

---

(٧) في كتابه البلاغي المطبوع عدة طبعات: "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" القاهرة: الآداب والمؤيد.

(٨) لعل عدم إلمام غالبية المترجمين للقرآن المكنون بهذه الدلالات من أهم أسباب وقوعهم في الأخطاء التي قد يقع فيها من يعتبرون حسني النية منهم. لأن اللغات المترجم إليها لا تحمل مثل خصائص العربية، خاصة في هذا المجال. أمَّا سيئو النية فأولئك لهم حديث آخر.

(٩) السياق أمر ذو أهمية بالغة، حيث يعد "السياق" في القرآن المجيد هو المنتج للدلالة، والموجه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفًا جامعًا مانعًا، وكأنهم اعتبروه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليون قد أبدوا اهتمامًا شديدًا بدلالة السياق فالسياق –عندهم– يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال المراد... وذلك لأن دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية، فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف.

التدبر في مواقع الجُمَل من الآيات، والآيات من السور، والسور من مجمل القرآن، وذلك بالنظر فيما قبلها وفيما بعدها لتظهر المناسبة، وتتحدَّد صفة الجملة وهُويَّتها في معرفة ما إذا كانت جوابًا عن سؤال، أو تعليلًا لمضمون كلام سابق، أو أنَّها وردت في موقع الاستدراك، أو في موقع الدليل لما سبق. وفي سائر الأحوال فإنَّ هناك وفرة في الدلالة لا يستطيع أبلغ البلغاء وأفصحهم أن يقارب أي مستوى من مستويات دلالاتها الوفيرة على أنواع من المعاني لا تقع تحت حصر؛ وذلك هو "الإطلاق" الذي يتفرَّد لسان القرآن به عن كل ما سواه، فكلّ ما عداه داخل في دوائر "النسبيَّة"[١٠]، أمَّا هو فمطلق مستوعب متجاوز لكل ما عداه من كلام البشر، ومنهم الأنبياء والمرسلون.

و"الإضافية" تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجوده فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافًا متباينًا بحسب تباين السامعين في ذلك.." راجع بدائع الفوائد لابن القيم (٩١٤-١٠) وإعلام الموقعين (١/٣٥٠-٣٥١) وقد أوردت ابنتنا د.رقية العلواني تفاصيل هامة في "دلالة السياق" وتقسيمات قديمة وحديثة أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغني الباحث في هذا المجال عن مراجعته فراجع ذلك في رسالتها القيمة "أثر العرف في فهم النصوص: قضايا المرأة نموذجًا" رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزيع دار الفكر في دمشق عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٢٦٠—٢٦٥. وكذلك رسالة صديقنا د. إبراهيم أصبان التي نال بها درجة الدكتوراه بعنوان "دلالة السياق في القرآن" لم تطبع طبعة عامة بعد. أمَّا السباق: فهو لصيق جدًا بالسياق، وكبير الأثر في إدراك المناسبات، وهو ربط الكلمات والآيات والسور بما يسبقها واعتبارها حلقة في سلسلة مترابطة.

[١٠] المطلق والنسبي:

"المطلَق" في المعجم الفلسفي (هو عكس النسبي) ويعني «التام» أو «الكامل» المتعري عن كل قيد أو حصر أو استثناء أو شرط، والخالص من كل تعيُّن أو تحديد، الموجود في ذاته وبذاته، واجب الوجود المتجاوز للزمان والمكان حتى إن تجلى فيهما. والمطلق عادةً يتسم بالثبات والعالمية، فهو لا يرتبط بأرض معيَّنة ولا بشعب معيَّن ولا بظروف أو ملابسات معيَّنة. والمُطلَق مرادف للقَبْليّ، والحقائق المطلقة هي الحقائق القَبْلية التي لا يستمدها العقل من الإحساس والتجربة بل يستمدها من المبدأ الأول وهو أساسها النهائي. ويمكن وصف الإله الواحد المتجاوز بأنه «المُطلَق»، ويشار إليه أحيانًا بأنه «المدلول المتجاوز»، أي أنه المدلول الذي لا يمكن أن يُنسَب لغيره فهو يتجاوز كل شيء. وقد عرَّف هيجل المُطلَق بأنه «الروح» (بالألمانية: جايست (Geist ويُقال «روح العصر» (أي جوهر العصر ومطلقه) و«روح الأمة» (جوهرها ومطلقها). وتَحقُّق المطلق في التاريخ هو اتحاد الأضداد والانسجام بينها، والحقيقة المطلقة هي النقطة التي تتلاقى عندها كل الأضداد وفروع المعرفة جميعًا من علم ودين، وهي النقطة التي يتداخل فيها المقدَّس والزمني (فهي وحدة وجود كاملة).

وفي مجال المعرفة، تعبِّر المطلقية (مصدر صناعي من «المطلق») عن اللانسبية وهي القول بإمكان التوصل إلى الحقيقة واليقين المعرفي بسبب وجود حقائق مطلقة وراء مظاهر الطبيعة الزمنية المتغيِّرة المتجاوزة لها. والمطلقية في الأخلاق هي الذهاب إلى أن معايير القيم – أخلاقيَّة كانت أم جمالية – مطلقةٌ موضوعيةٌ خالدةٌ متجاوزةٌ للزمان والمكان، ومن ثم

يمكن إصدار أحكام أخلاقية. أما في السياسة، فهي تعني سيادة الحاكم أو الدولة بغير قيد ولا شرط. والدولة المطلقة هي الدولة التي لا تُنسب أحكامها إلى غيرها فمصلحتها مطلقة وإرادتها مطلقة وسيادتها مطلقة.

أما «النسبي»، فهو ينُسَب إلى غيره ويتوقف وجوده عليه ولا يتعيَّن إلا مقرونًا به، وهو عكس المطلق، وهو مقيد وناقص ومحدود مرتبط بالزمان والمكان يتلون بهما ويتغيَّر بتغيرهما، ولذا فالنسبي ليس بعالمي .

ونحن نذهب في هذه الموسوعة إلى أنه داخل المنظومات التي تدور في إطار المرجعية المتجاوزة (مثل الرؤية التوحيدية) لا ينقسم العالم بشكل حاد إلى مطلق ونسبي، فالمطلق النهائي الوحيد (المطلق المطلق) هو الإله المتجاوز وهو مركز النموذج والنسق والدنيا الذي يوجد خارجها، أما ما عداه فيتداخل فيه المطلق والنسبي، فالإنسان يعيش في الطبيعة النسبية ولكنه يحوي داخله النزعة الربانية التي لا يمكن ردها إلى العالم المادي النسبي، ولذا فهو يشعر بوجود القيم المطلقة ويهتدي بهديها (إن أراد). والكائنات نسبية فهي تُنسَب لغيرها، ومع هذا لها قيمة مطلقة، ولذا لا يمكن قتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق لأنها مطلقة، ومن قَتَل نفسًا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا. وأقل المخلوقات في الكون هي من صنع الله، ولذا فلها قيمتها المطلقة. وتداخل النسبي مع المطلق لا يلغي المسافة بينهما، ولذا فهما لا يمتزجان ولا يذوب الواحد في الآخر .

ويمكننا الحديث عن النسبية الإسلامية باعتبارها نسبية تنصرف إلى خطاب الخالق، فنحن نؤمن بأن ثمة مطلقات نهائية لا يمكن الجدال بشأنها، نؤمن بها بكل ما تحوي من عقل وغيب؛ منها ننطلق وإليها نعود، أما ما عدا ذلك فخاضع للاجتهاد والحوار .

أما في المنظومات التي تدور في إطار المرجعية الكامنة، كالنظم الحلولية الواحدية والمادية، فإن مركز العالم كامن فيه. ولذا، قد يتجسد المطلق في أحد عناصر الدنيا (يتجسد فيه ولا يتبدى من خلاله) فيصبح هذا العنصر المادي أو الملموس هو المطلق والمقدَّس وأما ما عداه فمدنَّس .

وأي نموذج مهما بلغ من مادية ونسبية يحتوي على ركيزة أساسية تدَّعي لنفسها المطلقية والقَبْلية، ولذا فإن النماذج المعرفية العلمانية التي تدور في إطار المرجعية المادية الكامنة تحتوي على مطلق علماني يفترض فيه أنه الركيزة الأساسية والمرجعية النهائية لكل الأشياء، يمنحها الوحدة والتماسك. وأهم مطلق علماني هو الطبيعة/المادة والتنويعات المختلفة عليه مثل الدولة وحتمية التاريخ... إلخ. وكلمة «مُطلَق» هنا تكاد تكون مرادفة لكلمة «ركيزة أساسية» وكلمة «مركز» أو «المبدأ الواحد» أو «اللوجوس»، فحينما نقول: "لقد حلَّ المطلَق في المادة"، فنحن نعني "لقد حل المركز في المادة" وأصبح كامنًا فيها غير متجاوز لها. (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ص٦٢:٦١). قلت: وما تقديري لما أورده الراحل المسيري –يرحمه الله– فإنني أرى أن الإله المتجاوز (جل شأنه) لا يوصف بالإطلاق، بل هو الأزلي المستوعب للمطلق والنسبي معا، فهو متجاوز لكل منهما، وأن المطلقات ثلاثة: (القرآن، والإنسان، والطبيعة)، لا بالمفهوم الذي ذكره الدكتور المسيري بل بالمفهوم المقابل للنسبي، فالقرآن مطلق، والإنسان مطلق، والكون مطلق، والإطلاق هنا نريد به شيئا أقرب ما يكون إلى "الكلي" في تعاريف المناطقة، والمتفلسفة، وأما النسبي فهو الخاضع للقوانين والسنن، له أجل مسمى يولد فيه أو يوجد فيه وآخر مسمى كذلك يموت فيه، أو ينعدم. فالإنسان باعتباره فردا والقرآن حين يكون كلمات مفردة والكون حين ينظر إليه بأنه جزئيات معينة فإنه يكون نسبيا، والله أعلم.

وقد تكفل الله سبحانه بحفظ القرآن لفظًا ومعنىً. قال تعالى: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**﴾ (فصلت:٤٢) وقد دلَّت الآيات المحكمات بسائر أنواع الدلالة على حفظ القرآن لفظًا. وقد تضافر النظم مع الوحدة البنائيَّة للقرآن، بالإضافة إلى وسائل أخرى ظاهرة وكامنة فيه على نفي الباطل عن القرآن، وعصمته في لفظه وحفظه في معانيه.

والقرآن الكريم يستوعب الوجود وعلاقاته وسائر عناصره. وهذا ما يجعل عملية استجلاء معاني القرآن باستقراء تام أمرًا قد تنوء به العصبة من العلماء. فالقرآن مع مزاياه وخصائصه وصفات الكمال فيه وحسن نظمه، وسموّ بلاغته، وعلوّ فصاحته، وتيسير الله (سبحانه وتعالى) له، يبقى في حالة من السموّ تجعل عمليَّة استجلاء معانيه بشكل قريب من الكمال عملية تحتاج -أول ما تحتاج- إلى إدامة الصلة بهذا القرآن الكريم، وبناء اللاحقين من أبناء الأمَّة على ما أسَّس السابقون، واعتبار عمليَّات تفسيره وتأويله واستجلاء معانيه، والتطهر للوصول إليها شغل المسلمين الشاغل عبر العصور في مختلف الأجيال. ولا يُنكر أنَّ علماء المسلمين قد بذلوا الكثير في هذا الصدد، وشمَّر الكثيرون منهم عن سواعد الجِدّ، وبذلوا جهودًا متتابعة في التفسير والتأويل، وبيان أوجه بلاغة القرآن وفصاحته وتحدّيه وإعجازه، ولم تبذل أمَّة أخرى جهودًا في دراسة ما أنزل الله إليها من كتب أو صحف. ولكن هذا القرآن كتاب مطلق كوني معادل للكون وحركته مستوعِب لهما، لا يُحيط به تفسير ولا تأويل -ولو تضافرت عليهما الجهود- بل يُحيط الله وحده (سبحانه وتعالى) به، فهو الذي فصَّله على علمه، وبيَّن في محكم آياته ما اختلف الناس فيه، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور.

لقد ورثنا -نحن المسلمين- كتابات في التفسير تجاوزت كل ما ورثناه في العلوم الأخرى من حيث العدد والاتجاهات، واتخذت اتجاهات التفسير لدى أمَّتنا -بدءًا من جيل التلقّي ثم الأجيال التي جاءت بعد ذلك الجيل المبارك- اتجاهات عديدة، فكان منها «**التفسير**

اللغوي»، ثم «**التفسير الآثاري**» القائم على روايات آثار عمليَّة وقوليَّة ذات علاقة بالآيات المفسّرة، ثم «**التفسير الفقهي**» الذى يركِّز المفسِّر فيه على معرفة أحكام القرآن أو الأحكام التي وردت في آيات القرآن الكريم. برزت بعد ذلك أنواع أخرى من التفسير، مثل «**التفسير الإشاري**» الذى عني به بعض الصوفيَّة، و«**التفسير العقلي**»، و«**التفسير البلاغي**»، ثم «**البياني**»، ثم برز في عصرنا هذا ما سُمِّي بـ«**التفسير العلمي**»، وربما أضاف بعضهم «**التفسير العددي**»، و«**التفسير الفلسفي**» وما إلى ذلك. وحين حاولنا استجلاء هذا التراث التفسيري المتنوّع بمعرفة ما قدَّمه للقرآن الكريم وللمخاطبين به –وهم البشريَّة كلّها– وجدنا أنَّ هذا التراث –على اتساعه وتنوّعه وكثرة فوائده– لم ينجح في استجلاء معاني القرآن الكريم كلها، وبقي في هذا الكتاب الخالد كثير من العوالم التي قد يشعر الإنسان بأنَّه لو خُلي بينه وبين القرآن، يراجعه ويسائله ويتدبَّر فيه ويتذكَّر ويتعقَّل لاستفاد من معانيه وتجلّياته وما فيه من نور وهداية أكثر بكثير مما استفاده من تدخُّلات المفسِّرين، ولا نتردد في أن نقول: إنَّ بعض التفاسير قد وقفت حاجزًا بين القرآن والقرَّاء، وربما حرمت بعضُ التفاسير القرَّاءَ من حسن استجلاء معاني القرآن العظيم ومحاولة التدبُّر فيها وتعقُّلها وتذكُّرها.

من هنا بدأت رحلتنا مع تدبُّر القرآن، ومحاولة فهمه من داخله واستجلاء أنواره من ثنايا آياته، والتّعرُّض لأنواره ونفحاته من داخله، فوجدنا في ذلك خيرًا كثيرًا، ونعمًا لا تُحصى، تجعل القارئ المتدبِّر –إذا أحسن التدبُّر ومرن عليه وتدرب وصبر– أكثر وعيًا بالقرآن وفهمًا لسياقاته وإدراكًا لمعانيه واعتبارًا بقصصه وأمثاله، وأقرب إلى الصواب في إدراك مقاصده وغاياته؛ ولذلك فقد اتجهنا للكتابة في هذا النوع من التفسير، وتنبيه الناس إلى فوائده، وشرح وبيان المنهج النبوي القويم في الأخذ به والنسج على منواله، سائلين العليّ القدير أن يُوفّقنا ويُعيننا على بلوغ هذه الغايات السامية الشريفة، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا وجلاء همومنا وأحزاننا، وأن يُنير به بصائرنا، إنَّه وليّ ذلك والقادر عليه.

الجمع بين القراءتين:

إنَّ القرآن الكريم قد بدأ اتّصاله برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) وبالأرض بالأمر بالقراءة، فكانت أوَّل كلماته أمرًا بالقراءة: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ*خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق:١-٥)، ففي هذه الآيات الخمس -الأولى نزولًا من الكتاب الكريم- أمرٌ بقراءتين وفي هذا تنبيهٌ إلى أنَّ تنزيله سوف يتكامل ليصبح كتابًا كاملًا تامًّا، مصدِّقًا لما بين يديه، ومهيمنًا عليه، ومشتملًا على تراث النبوَّات كلها، وحاملًا لهدايات الأنبياء والمرسلين جميعًا.

إنَّ كل قراءةٍ من القراءتين لها خصائصها التي تستمدّها من صلة الموصول. فالقراءة الأولى في قول الله (تبارك وتعالى): ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾، قراءةٌ يستعين الإنسان في ممارستها باسم الله «**الخالق**»، والخلق بالنسبة لهذا الإنسان المتلقّي لهذا القول الثقيل يبدأ من علق: ﴿**خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾، والعلق قطعة من الدم ثم جعلها الله بعد مراحل عديدة إنسانًا يمشي على الأرض. أمَّا القراءة الثانية فهي قراءة بالقلم: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾ (العلق:٤،٣). وذكر «**القلم**» هنا في صلة الموصول ﴿**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾**(العلق:٤-٥)** تربط بين القراءة -قراءة القرآن الكريم والقلم- وجميع القراءات التي تراكمت بواسطته منذ بداية الخلق حتى بداية عصر التنزيل، فهي قراءة بالخلق وقراءة بمتراكَم المعرفة، وقراءة بالوحي النازل، ممَّا يُشير إلى أنَّ القرآن يُعَلِّمُ منذ البداية الجمعَ بين قراءتين أو أكثر من قراءتين؛ لكي يحقق أهدافه أهداف التنزيل.

ثم تتالت وتتابعت أنواع القراءات بعد ذلك. فهناك: قراءةٌ يَعْمِدُ المتعبِّدون الذين يبتغون ثواب الله (تبارك وتعالى) بالقراءة إلى القيام بها. هذا الثواب الذي وعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) به: "اتلوه فإنَّ الله يأجركم بكل حرفٍ عشرة، لا أقول ﴿**آلم**﴾ حرف، ولكن

«**ألف**» حرف و«**لامٌ**» حرف و«**ميمٌ**» حرف"[11]. وهناك قراءةٌ أخرى: هي قراءةُ الذين يريدون معرفة الحلال والحرام وشريعة القرآن الكريم، فهي قراءة تتَّسم بالبحث عن الشريعة وعن الآيات التي تحمل تشريعات إلهيَّة من أمر ونهي ووصيةٍ وما إلى ذلك. وهناك قراءة ثالثة، هي قراءة أولئك الذين يريدون أن يعرفوا تاريخ البشريَّة وتطوِّرها ومسيرةَ البشريَّة عبر التاريخ، منذ بدء الخليقة حتى أيام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم)؛ رغبةً في معرفة ذلك التاريخ والاعتبار به، واستنباط دروسه وعبره. وهناك قراءة رابعة، هي قراءة مَنْ يقرأ ليستمْتع بدقَّة اللفظ وجمال الأسلوب وبلاغة القرآن الكريم؛ ولكي يرى جوانب تحدِّيه ووجوه إعجازه للبشريَّة عن أن تأتي بمثله. وهناك قراءةٌ خامسة هي قراءة من يحاول أن يطَّلع على قصص الأنبياء، ومعرفة أقوامهم وأحداث أزمانهم ومضامين رسالاتهم. وهناك قراءةٌ سادسة، تحاول أن ترى ما إذا كان هذا القرآن يستشرف المستقبل، ويُعطي مؤشرات له، ويوضِّح مصير الإنسان ومصير البشريَّة، إلى غير ذلك من قراءات كثيرة تكاد تشمل جوانب القرآن الكريم المختلفة. وهناك أناس درجوا على إثارة أسئلة؛ بعضها في الفلك، وبعضها في التاريخ، وبعضها عن الحاضر والمستقبل، وغير ذلك من أجل أن ينزل الجواب على أسئلتهم تلك وَحْيًا، بحيث يكون لديهم جواب تطمئن إليه النفوس، وينشرح له القلب.

هذه القراءات المتعدِّدة المتنوعة هي التي بدأ الفكر الإسلاميّ يتكون في بداياته بها وحولها. فلم يكن للعرب قبل القرآن علوم ومعارف متطورة، فقد كان العرب أمَّة من الأمِّيين، والأميُّون كلمة لها معنيان؛ فالمعنى الأول: أي الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وهذا ليس مرادًا هنا؛ لأنَّه من المعروف أنَّ بيئة قريش بيئةٌ تجاريَّة، وكان فيها شيءٌ من القراءة وشيء من

---

[11] نص الحديث كما ورد في صحيح الترمذي وغيره: «عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ».

محمَّد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي (دار إحياء التراث العربي: بيروت) (٥/ ١٧٥) تحقيق أحمد محمود شاكر وآخرون.

الكتابة، شأنها شأن البيئات التجاريَّة، كما أنَّ هناك ما يدل على أنَّ العرب كانت لهم كتابات في تلك المرحلة[١٢]. أمَّا المعنى الثاني للأميّ أو الأميين: هم الذين لم ينزل عليهم كتاب من قبل، وانقطعت الصلة أو لم تقم صلة بينهم وبين الوحي الإلهيّ في وقت منظور. والعرب -وإن كان هناك تاريخ لبعض الأنبياء في جزيرتهم مثل هود وصالح- قد بَعُدت الشُّقَّة بينهم وبين هؤلاء الأنبياء والمرسلين، فعادوا إلى أميَّتهم؛ ولذلك سموا بالغافلين في بعض الآيات: ﴿**لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ (السجدة:٣)، وقد نُسيت كل تلك الرسالات، وفَصلت بينهم وبينها دهور. كأنَّهم لم يأتهم نبي أو رسول من قبل، فهم من الشعوب الأميَّة بهذا المعنى؛ أي التي لم تتلقَّ رسالةً سماويَّة. ومن هنا تطلَّعت وتشوَّقت نفوسهم إلى رسالة: ﴿**أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ**﴾ (الأنعام:١٥٧)، أي وهم ينظرون إلى اليهود والنصارى من حولهم وكانوا يتشوقون إلى نزول شيءٍ أو خطابٍ إليهم.

وبسبب كون العرب أميّين لم ينزل عليهم وحي قبل القرآن، فلمَّا أنزل القرآن الكريم بدأت تتكون أفكارهم ومعارفهم وعلومهم من تفاعلهم مع القرآن. ممَّا جعل ابن عبد البر أو سواه يقولون: "العلم: قال الله، قال رسوله"، فالعرب قبل نزول القرآن، كأنَّهم لم يمارسوا أيَّة عمليَّات تعليميَّة أو معرفيَّة عامَّة ومؤثرة؛ ولذلك كان القرآن بالنِّسبة لهم هو المصدر المنشئ لأفكارهم ولآرائهم ولتصوّراتهم ولمعارفهم ولعلومهم، وحوله تكوَّنت تلك المعارف التي عرفت فيما بعد بـ«**العلوم الإسلاميَّة**»، وعليه نشأ «**الفكر الإسلاميّ**» أو «**العلوم النقليَّة**»، أو التي سُمِّيت في بعض المراحل بـ«**العلوم الشرعيَّة**»، فهذه العلوم تكوَّنت في دوائر تلك القراءات المتعدِّدة والمقاربات المتنوِّعة للقرآن الكريم حتى أصبحت مجموعةً من المعارف التي

[١٢] ويمكن الرجوع إلى بعض المصادر التي تعرَّضت لوضع الأعراب وعرب الجاهليَّة وقبائلهم المختلفة في عصر التنزيل، منها «المفصَّل في أحوال العرب» لابن يعيش، ومنها «بلوغ الأرب في أحوال العرب» للآلوسي، ومنها «عصر النبي وبيئته قبل البعثة» لمحمد عزة دَرْوَزَة، إلى مصادر أخرى كثيرة تحدثت عن تلك الفترة.

بدأ تدوينها الرسمي عام ١٤٣هـ[١٣] الذي صار هو تاريخ التدوين الرسمي لتلك المعارف أو لذلك الفكر الذي انبثق عن قراءات المسلمين للقرآن الكريم؛ فهناك تفسير، وعلم عقيدة أو توحيد، وعلم فقه وأصول، وحديث، وعلوم عربيَّة. وهذه كلها تقريبًا جَرَت مقاربتها أو عمليَّة الوصول إليها بالقراءات أو بالمقاربات الإسلاميَّة للقرآن الكريم التي تنوعت وتعددت –كما ذكرت– بتعدد أنواع القراءة، إضافة إلى أنواعها القديمة منها والحديثة. وكلّها كانت ذات ارتباط وثيقٍ بالقارئ نفسه، فللقارئ رؤيته الكليَّة وتصوّره ودوافعه ودواعيه ومؤثرات أخرى كثيرة من بيئته وثقافته وحضارته وقدراته ونواياهُ وغاياته وسائر المؤثرات الذاتية الأخرى، وللقارئ دور كبير في تحديد نوعيَّة القراءة التي يقرأ القرآن الكريم بها.

والقراءةَ ذات علاقةٍ وثيقة بالزمان والمكان، فالزمان الذي يقرأ القارئ القرآن فيه، والمكان الذي يقرأ القارئ القرآن به كلاهما له أثره في عمليَّة القراءة، واختيار نوعها وكيفيَّتها، والحصول على النتائج المتوخّاة منها. وهناك البعد الغيبيّ الإلهيّ الذي يُحيط بالقارئ وبالقراءة وبمنهجها، فإذا صادف القارئ لطفًا من الله (تعالى) وعنايته وتوفيقه فقد يوفَّق في قراءته، وقد يصل بهذه القراءة إلى كثير من مكنون القرآن الكريم؛ ولذلك فإنَّ الله (تبارك وتعالى) قال: ﴿**لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (الواقعة:٧٩)، وهنا تُشير الآية إلى عمليَّة الوصول إلى المعنى، وليس اللمس الحسِّيّ كما ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء. وإنَّما مَسُّ المعنى الدقيق المكنون والوصول إليه. وقد وضع الله (تبارك وتعالى)كلمة: ﴿**المطهَّرون**﴾ بصيغة اسم المفعول لكي ينبِّه إلى أنَّ عمليَّة التطهير تجري من الخارج، يعني المطهَّر هو من طهَّره غيره. ذلك يعني أنَّ المطَهَّرين هم أولئك الذين طهَّرهم الله (تبارك وتعالى) وهيَّأ عقولهم وقلوبهم ووجدانهم للمس معاني القرآن الكريم والوصول إليها. ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) يقول: "إنَّ لربكم

[١٣] على ما أكّد الذهبي وتبعه بعد ذلك السيوطيّ.

في دهركم لنفحات، فتعرَّضوا لها»[14]، فحينما يقوم القارئ للقرآن الكريم متعرِّضًا لنفحات الله (تبارك وتعالى) فإنَّ استفادته بقراءته سوف تكون أكثر بكثير من ذلك الذي حُرِم هذه الجوانب أو لم يصادفها.

وقد وصف الله (تبارك وتعالى) القرآن الكريم بأنَّه هُدى لقوم، ونور وبيان لأقوام، وقد وصفه كذلك بأنَّه لا يزيد الظالمين إلا خسارًا. وينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمه للمؤمنين: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**﴾ (الإسراء:٨٢). فهذا الخطاب يتنوَّع دوره في التأثير بتنوع القارئ وما يتصف به وما يتعرض له من نفحات الله (تبارك وتعالى).

وهناك **معوقات تحول بين القارئ وبين القراءة التي سماها الله (جل شأنه) بالتلاوة،** يجب أن يحرصَ القارئ على تلافيها ومنها:

أولًا: «الدخول بأحكام مسبقة»: الدخول بأحكامٍ مسبقة إلى القرآن الكريم يُعدّ من المعوقات التي إن دخل القارئ بها فإنَّه لن يكون قادرًا على استجلاء معاني القرآن بشكل سليم. فالقرآن إنَّما ينفتح على قارئٍ هو في حاجة إليه، يريد أن يستنطقه ويستثيره لكي ينال من هدايته ومن معانيه ما يسدِّد طريقه ويصوِّب خطاه، ويعينه على معالجة أزمته. يقول الله (تبارك وتعالى): ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾ (الضحى:٧)، فالتائه سوف يجد هدايته فيه، ولكن الداخل إليه بأحكام مسبقة سوف يجد نفسه يقرأ بطريقة مَنْ يفرض على القرآن معاني قد لا يحتملها نصُّه ولا يُشير إليها أو يدل عليها خطابه بأيّ وجهٍ من أوجه الدلالة. وهنا يتحوَّل القارئ من قارئٍ تالٍ مفتقر إلى ما في القرآن الكريم إلى إنسان يحاول تحميل القرآن ما لا يحتمل.

---

١٤ جلال الدين السيوطي، جامع الأحاديث (٩/ ١٥٣) نقلًا عن: الطبراني في الكبير (١٩/٢٣٣، رقم ٥١٩)، والأوسط (٣/١٨٠، رقم ٢٨٥٦).

ثانيًا: «البحث عن شواهد»: من المعوقات أن يمارسَ القارئ القراءة في القرآن الكريم طلبًا لشاهد أو دليل معضِّد لموقف يقفه أو رأي يراه. ففي هذه الحالة كذلك، سوف يكون القارئ محجوبًا عن جوانب هامَّة من أنوار القرآن وأضوائه ووسائل هدايته ومعانيه.

ثالثًا: «الاختلاف»: فإذا وقع اختلاف بين القارئين للقرآن الكريم وتنازعوا أمرهم، وحاول كلٌّ منهم أن يتَّخذ موقفًا ما يستدل عليه. هنا ينصح رسول الله (ﷺ) هؤلاء بأن يتركوا القرآن، وأن يقوموا عنه، حيث إنَّ القرآن في هذه الحالة –حالة الاختلاف والشقاق النَّفسي– سوف يحمل القارئين على أن يجعلوا من القرآن مجرد شواهد ووسائل معبرِّة عن آرائهم التي اختلفوا فيها وحولها. وسيؤدي ذلك إلى أن يضربوا القرآن بعضه ببعضٍ بدلًا من أن يقرؤوه في تكامل تامٍ، وفي إطار وحدته البنائيَّة؛ ليتعرَّضوا لنفحات الله (تبارك وتعالى) فيه.

وهناك **مقدمات يجب على القارئ أن يعيها في ولوجه للقرآن الكريم**، منها:

أولًا: «موقع القارئ من الخطاب»: يجب أن يحدد القارئ موقعه من الخطاب، ما موقعي أنا؟ هل جئت إلى القرآن الكريم طالبَ هدايةٍ، أم طالب تعبُّدٍ أم طالب معرفة حكم أم طالب معرفة سُننٍ إلهيَّة أم سُنَنٍ اجتماعيَّة أم تاريخ أقوامٍ أم استنباط هداية أم ماذا؟ هذا التحديد مهم جدًّا، ولابد للقارئ أن يُحدِّد موقعه من القرآن الكريم وهو يلج إلى رحابه، ولا بد من أن يُحدِّد موقع الخطاب منه؛ ما علاقة القرآن به؟ وهنا يُبيِّن إيمانه واحترامه للقرآن ورؤيته له، وأُلْفته معه، وعلاقته به، وتصوُّره له، مع إيمان تام ويقين كامل بقدرة القرآن المجيد على تزويد القارئ –بكرمه– بما هو بحاجة إليه. فلابدَّ أن يحدِّد القارئ هدفه من القراءة بدقة تامَّة، وهو ما نسمِّيه بالنيَّة: "إنَّما الأعمال بالنيَّات". والقراءة عمل، فلا بد من بناء النيَّة والتعرُّض للتطهير الإلهيّ. لعلَّ القارئ يصبح واحدًا من أولئك المطهَّرين الذين يستطيعون العروج إلى مسّ معاني القرآن الكريم.

ثانيًا: «تنزيل القراءة على القلب»: تنزيل قراءتنا للقرآن على قلوبنا أمر في غاية الأهميَّة؛ لكي نحصل على ثمرة القراءة، ولنجني فوائدها، فالقراءة بالعينين وتحريك اللِّسان دون إشراك فعليّ

للقلب لا تؤدي ما تؤدِّيه القراءة عندما ينزِّل القارئ قراءته على قلبه مباشرة. وهذا النوع من القراءة يقتضي تيقُّظ قوى الوعي الإنسانيّ -كلّها- عند القراءة، وتحتاج إلى تدريب على ذلك، بحيث تفيض القراءة من القلب إلى الجوارح، فيكون القلب هو المستقبل الأول لآيات الكتاب الكريم.

فالقرآن الكريم ليس كتابًا عاديًّا ينزَّل على السمع أو يوضع أمام العين لكي يقلب الإنسان الطرف في كلماته، أو يتصفحه تصفحًا، أو يستمع بقلب لاهٍ أو ساهٍ له، بل لا بد أن ينزَّل على القلب قبل أن ينزَّل على اللسان أو ينزَّل على الأذن في حالة الاستماع، قال (تبارك وتعالى): ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ (النحل:١٠٢)، ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (**البقرة:٩٧**)، ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ (**الشعراء:١٩٤:١٩٢**). فالتنزيل على القلب إذًا ليس بالأمر السهل؛ لأنَّه يحتاج إلى تدرُّب وتطهُّر، فليس كل كلامٍ يمكن للإنسان أن ينزّله على قلبه؛ ولذلك نُهي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يحرك به لسانه: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ*إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ**﴾ (القيامة:١٧،١٦)، وأمر -في الوقت نفسه- ونبَّه إلى أنَّ التنزيل إنَّما يتم على القلب، فالقارئ للقرآن الكريم محتاجٌ أن يُنَزِّلَ القرآن على قلبه، والتنزيل على القلب يستلزم أولًا تطهير القلب وتنقيته من كل ما قد يحول بين القرآن وبين النزول على قلبٍ ممهّدٍ ليّنٍ، إذا نزل عليه زاده إيمانًا وزاده إخباتًا وخشوعًا، قلبًا مخبتًا لا تعرف القسوةُ إليه سبيلًا، والقرآن يزيد ذلك القلب لينًا، كما يلين له الجلد: ﴿**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ (الزمر:٢٣). وفي الوقت نفسه لا بد من تزكيةِ القلب وتطهيره وإعداده وتهيئته، فكما تُمهد الأرض لإنزال طائرةٍ عليها مثلًا لا بد لك من تمهيد القلب لكي تنزل عليه آيات القرآن الكريم وتوجد بين القلب وبين الكتاب الكريم رابطةً وثيقة لتذكر مُنَزِّلِه والمتكلم به (سبحانه وتعالى) وتذكر متلقيه الأول (عليه الصلاة والسلام) الذي تلقاه وحمله إلى البشريَّة.

ثالثًا: «حضارة كلمة وحضارة الصورة»: أمر آخر لا بد للقارئ أن يتنبَّه له ألا وهو أنَّ هذا القرآن كلمات الله، فيحتاج القارئ أن يدرك أنَّ القرآن كلام الله، يقوم على الكلمة. وأنَّ الحضارة التي أقامها القرآن الكريم هي **حضارة كلمة** وهي مقابل **حضارة الصورة والتمثال**، والكلمة يستحيل توثينها، وإن وثَّنها بعض الناس، ولكن لا يعني هذا كذلك أن يتعامل معها تعاملًا عاديًّا كأيَّة كلمةٍ أخرى. فهذه الكلمة الموجودة في القرآن كلمة إلهيَّة تقابل الكلمات الإلهيَّة الموجودة في الكون التي بها تشيَّأ الكون حين قال الله (تبارك وتعالى): ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (النحل:٤٠). وحضارة الكلمة غير حضارة الصورة أو المثال؛ فلحضارة الكلمة خصائصها، وللعقل المنتمي إلى حضارة الكلمة سماتٌ وصفات لا بد للقارئ أن يكون على وَعْيٍ بها ليحسن التعامل مع تلك الكلمات، وكلمات القرآن الكريم ليست كَأَيَّةِ كلمات عربيَّة. وإنَّما هي كلمات على مستوى عالٍ يرتقي إلى مستوى المفاهيم. وذلك للفرق الكبير بين الاستعمال الإلهيّ للّغة والاستعمال البشري لها. فالاستعمال البشريّ للغة قد لا يحمل من ثراء المعاني ما يحمله الاستعمال الإلهيّ الذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، والذي فصَّل هذا الكتاب على علمه (سبحانه وتعالى). فالكلمة القرآنيَّة إذًا كلمةٌ ترتقي لمستوى المفهوم. وعلى القارئ أنْ يدرك الفرق بين الاستعمال الإلهي للكلمة والاستعمال البشري لها. وبالتالي فالقرآن الكريم هو أَوْلَى المصادر بتعريف كلمات القرآن الكريم نفسه، فالقرآن يجعل من الكلمة الواحدة غرفةً في بناء أو لبنةً في بناء تعطي فائدتها منفردة ومستقلة، وفي الوقت نفسه تعطي جملةً من الفوائد وهي في داخل البناء. فَوَعْيُ القَارئ بهذا الأمر وعيٌ له أهميَّته، وتظهر أهميَّتُه في عمليَّة الفهم وفي التعامل مع مفردات القرآن الكريم بوصفها «**مفاهيم**»، ومع القرآن الكريم في «وحدته البنائيَّة» وفي «كليَّاته» و«مقاصده» و«غاياته». أمَّا الصورة فلها تناولٌ آخر، ولها طرائق مختلفة في النظر إليها، والتكوين العقلي للمنتمي لحضارة الصورة والتوجُّه النفسيُّ مختلفٌ تمامًا عن توجُّه المنتمي لحضارة الكلمة.

رابعًا: «لسان القرآن»: نقطةٌ أخرى لا بد من التنبُّه لها، ألا وهي اختلاف «**لسان القرآن**» جملةً عن أيّ لسان آخر بما فيه اللسان العربيّ، وتمتُّع هذا اللسان –لسان القرآن– بمزايا مختلفة. فلسان القرآن الكريم من الصعب جدًّا إخضاعه لأحكام الألسنيَّات، خاصَّةً المعاصرة

التي تنطلق من عمليَّات دراسة النصوص وتفكيكها وإعادتها إلى كلمات مفكَّكة لتيسير تحليلها! وعدم ملاحظة سائر الجوانب التي أشرنا إليها من مزايا كلمات القرآن الكريم ونَظْمِهِ وأسلوبه وتحدِّيه وإعجازه، وأثر الاستعمال الإلهيّ للغة، والفرق بينه وبين الاستعمال البشريّ لهذه الألسنيَّات، يصعب أن ترتقي إلى هذا المستوى، ويصعب أن تتعامل مع النص القرآني التعامل اللائق به، والقادر على العروج إلى علياء الألسنيَّات القديمة. وقد قام البلاغيُّون المسلمون؛ مثل عبد القاهر الجرجاني في «**دلائل الإعجاز**»، والزمخشري في «**أساس البلاغة**»، وابن جِنّي في «**الخصائص**»، وسيبويه في «**الكتاب**» والخليل في «**العين**» بدراسات لغويَّة، وجدت وولدت في البيئة المسلمة، وبتأثير قرآني. لقد كان من الممكن لو أنَّ المسلمين جاوزوا تخلُّفهم الذي هم فيه، أن يبنوا على تلك الدراسات ليكون لديهم علم ألسنيَّات ملائم للتعامل مع القرآن الكريم بمزاياه وبخصائصه كلها، وأن يضيفوا على هذه الألسنيَّات وعلومها ومناهجها معارف ومناهج أخرى يمكن أن تجعل اللسانيَّات الإسلاميَّة والعربيَّة لسانيَّات متميِّزة صالحة لخدمة الخطاب القرآنيّ ولحمايته من تطفل الذين لا يعرفون عنه الكثير، ولا يستطيعون أن يتذوَّقوه، ولا يستطيعون أن يلموا بكثير من الأبعاد الأساسيَّة لقراءته، ولأغنوا أنفسهم عن التطفل على موائد علماء الألسنيَّات والبحث الفونولوجي وما إلى ذلك، وأغنوا الكتاب المجيد أن يتعرَّض لما تعرض له وما يزال من تلك الدراسات الفجَّة التي لم تستطع أن تخدمه ولا أن تُقدِّم له الكثير.

القرآن الكريم نفسه قد هدى الناس إلى مناهج قراءته. فكأنَّه قد أخذ بأيديهم، وقال لهم إنْ شئتم أن تقرؤوني فاقرؤوني بهذه المناهج أو بهذه الطرق، فهو قد أوضح الفروق بين تدبُّره في حالة الاستماع وتدبُّره في حالة القراءة: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ (الأعراف:٢٠٤)، فالقارئ نفسه مطلوب منه أن يقرأ بكل الشروط والمواصفات التي تقدَّمت الإشارة إليها، والمستمع بحاجةٍ إلى أن يُنصت إلى هذا القرآن بجوارحه كلّها؛ لأنَّ للخطاب القرآنيّ طرقًا مختلفة تستدرج القارئ والسامع إلى التفكير فيها إذا ظهرت للقارئ أو السامع المسالك، وأعدَّها لاستقباله، فالخطاب القرآنيّ ليس من النوع الذي يمكن للقارئ به أو للسامع أن يضع عوازل بينه وبين تأثيره فيه إذا ما استقبله بقلبه، وأنزله على قلبه، واستقبله

وهو مدركٌ لعظمته ولأهميَّته ولمزاياه. فقد تضافرت الروايات الدالَّة على أنَّ القرآن الكريم حين استمع إليه أو قرأه بعض المشركين تأثروا به، ومَنْ منَّا يجهل قصة إسلام عمر بعد قراءته لشيءٍ من سورةِ طه؟ وقصة الوليد بن المغيرة، وقصة الثلاثة (الأخنس ابن شريق وأبي جهل وأبي سفيان) واستراقهم السمع إلى قراءة رسول الله (ﷺ) للقرآن. وفي الجانب السلبيّ نجد أنَّ المشركين لمعرفتهم بذلك التأثير سارعوا إلى أن قالوا: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ (فصلت:٢٦) فقد دعوا إلى عدم السماع أصلًا منذ البداية؛ لأنَّهم يعرفون من قوة الخطاب وصدق تأثيره وتنوُّع مصادر قوته الشيء الكثير عن تأثيره فيمن يقرأه أو يسمعه؛ ولذلك فلم يكونوا يستطيعون أن يعطوا أحدًا فرصةً للاستماع إليه. وفي الوقت نفسه يقول البارئ (سبحانه وتعالى) لرسوله (ﷺ): ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ (التوبة:٦). فلابد إذا سمع بنوع من الانفتاح أن يحدث الخطاب نوعًا من التأثير فيه، ويشق طريقه إلى قلبه وعقله ووجدانه. فيكون من الصعب جدًّا أن يتلافى ذلك التأثير إذا كان مدركًا لقيمة هذا القرآن وكيفيَّة التفاعل معه وكيفيَّة استقباله قراءةً أو استماعًا.

إنَّ القرآن الكريم بدأ أول ما بدأ بأمر بالقراءة نزلت به: ﴿**اقرأ**﴾ ليرشد الناس إلى ضرورة قراءته ويبيِّن أنَّه قد يسَّره الله (سبحانه وتعالى) للقارئين فقال: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر:١٧)، وبيَّن لنا أنَّ هناك آثارًا سلبيَّة وأخرى إيجابيَّة لهذا الخطاب: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ (الأنفال:٢) ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد:٢٨). وهذا كله للذي يؤمن بهذا القرآن ويدرك عظمة وجلالة قدره.

خامسًا: «أسماء القرآن» ومن أهم الأمور التي تساعد القارئ على معرفة القرآن معرفةً جيدة وبناء ألفةٍ معه معرفة أسماء القرآن الكريم بمعانيها، ومعرفة صفاته بدلالتها، وللقرآن الكريم ما يزيد عن أربعة وثلاثين اسمًا. وله مجموعةٌ من الصفات، أحصاها أو أحصى بعضها الإمام

الرازي وآخرون من علماء القرآن الكريم. هذه الأسماء وهذه الصفات زادت على الخمسين. ومن شأنها أن تزيد في فهم القارئ وفي وعيه بأهميَّة القرآن وإدراك عظمته. وبالتالي تهيئة النَّفس والعقل والقلب والوجدان لاستقبال مُحْكَم آياته قراءةً أو استماعًا. وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات كريمة كثيرة تُبيِّن لنا طرائق استماع المؤمنين للقرآن الكريم وتلاوتهم له، وطرائق استعمال غيرهم واستقبالهم له، فهو كما قلنا شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة، وهو موعظةٌ للمتقين، وهو بشرى وذكرى ونذارة في الوقت نفسه. لا يمكن إطلاقًا أن يتجاهل القارئ ذلك كله ويصل من دونه إلى المستوى الذي نبَّه القرآن الكريم إلى ضرورة الوصول إليه بقارئه وبسامعه وبتاليه. فالتلاوة يجب أن تكون «**حقَّ التلاوة**»، لا يكون فيها لَيّ بألسنتهم، ولا يكون فيها طعنٌ في الدين، ولا يكون فيها فسادٌ في النيَّة إلى غير ذلك من آداب ووصايا قد اشتمل القرآن الكريم عليها؛ ليُبيِّن لنا المنهج الذي نقاربه به ونقرأه به، وذلك هو منهج القراءة ومنهج الاستماع. وهذه كلها تحتاج إلى نوع من الاستقصاء في آيات القرآن الكريم؛ لنتبيّن هذه الآيات، ونضعها في نوع من التراتب والتلازم يسمح للقارئ الوصول به إلى ما يتمنَّى الوصول إليه بقراءته للقرآن الكريم. والله (تبارك وتعالى) ما أنزل القرآن منجَّمًا وما فرَّقه وقرأه على الناس على مكث إلَّا من أجل تثبيت القلوب والعقول به، فقال (سبحانه): ﴿**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا**﴾ (الاسراء:١٠٦)، ﴿**كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا**﴾ (الفرقان: ٣٢)، وسمَّى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) بعض القراءات بقراءة «الهذرمة»، وسمَّى القرآن الكريم بعض القراءات بقراءة «**العِضين**»: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ (الحجر:٩١)، أي قراؤوه باعتباره أعضاء مجزأة مقطَّعة مفرقة عن بعضها، فكل هذه الأمور حينما نضمها إلى بعضها سوف نخرج بمنهجٍ دقيقٍ لقراءة القرآن، رسمه القرآن نفسه ليهدينا به إلى المنهج الذي علينا أن نتبعه في قراءته وتلاوته وفي الاستماع إليه.

فلا بد من معرفة أسماء القرآن وصفاته، لكي يستصحب القارئ ذلك كله وهو يتلو آيات القرآن الكريم، ويتلوه متدبرًا متفكرًا متعقلًا متذكرًا نظمه، ويتدبر فيه وفي تفرُّد أسلوبه، وكيف تحدَّى البشريَّة كلها، بل العالمين كافَّة، وكيف عجزت البشريَّة كلها عن الاستجابة

لذلك التحدي، وأنَّه خطاب يختص بضرورة أخذه بقوة وتلقِّيه بقلبٍ منفتح وعقلٍ منفتح وعزيمةٍ صادقة.

فهذه بعض معالم وملاحظات وجيزة لعلَّها تبيِّن لنا نوعيّة القراءة التي علينا أن نمارسها ونحن نقرأ القرآن الكريم ونقاربه. خاصَّةً في هذه المرحلة الحرجة من تاريخنا، والتي لا نجد فيها بين أيدينا إلا كتاب الله الكونيّ، فهو القادر على إخراجنا من الحيرة وتخليصنا من هذه الفتن، كتاب الله الذي يرسم لنا طريق الخلاص كما يشير إلى ذلك الخبر المروي عن أمير المؤمنين عَلِي –كرّم الله وجهه ورضى عنه– الذي ذكرناه آنفًا.

فهل استطاعت أمَّتنا –عبر تاريخها، وباستعمالها لمختلف العلوم والمعارف التي وضَعَتْها من أجل استجلاء معاني القرآن– أن تكتشف القرآن، ثم تقدِّم ذلك القرآن الكريم للبشريَّة باعتباره كتاب استخلاف ومنشأ عمران، ودليل استقامة وهداية في هذا الوجود؟!.

لا شك أنَّ أمَّتنا قد حاولت، وقد قدَّمت خدمات كثيرة في كتابة القرآن وفي قراءته وفي تجويده وزخرفة أوراقه، وفي طرق تناقله، وفي إحصاء كثيرٍ من الأمور الدقيقة الدائرة حوله. ولكن لم تستطع بالرغم من إعداد وكتابة ما يقرُب من مليون دراسة وكتاب ورسالة –ما بين مطبوع ومخطوط في قضايا القرآن وتاريخه وجمعه وعلومه المختلفة– أن تقدِّم لنا القرآن كما ينبغي أن يُقدَّم باعتباره كتاب خلافةٍ ودليل عمران، ومصدر تحقيق للشهود الحضاريّ في هذه الحياة الدنيا. فدراساتنا في «**علوم القرآن**» قد اتَّسمت بكثير من القصور، ودخلت في بعضها قضايا خطيرة مثل دعوى «**النَّسخ**»، و«**تعدُّد الأحرف**»، و«**القراءات**» خاصَّة ما سمِّي بـ«**القراءة الشاذة**»، وعن هذه العلوم انتقلت تلك الإصابات إلى بعض معارفنا الأخرى، مثل «**أصول الفقه**»، ومجموعة من الإصابات الخطيرة التي أشرنا إليها بوصفها علمًا نتداولها باعتبارها من علوم القرآن. لقد حمَّلت تلك المقولات القرآن الكريم مجموعةً من التساؤلات الشاغلة عن تدبُّره، والأمور التي ما كان ينبغي لهذه الأمَّة أن تغفل عنها، وما كان

ينبغي أن تسمح لها أن تمر إلى «**علوم القرآن**»، فضلًا عن أن تعيش وتتداول حتى أيامنا هذه. وهناك أخبار منها خبر يُنْسَبُ إلى أمِّنا عائشة –رضوان الله عليها– ولا أشك أنَّها بريئة من ذلك، يقول الخبر إنَّها قالت: "أتدرون كم هي سورة الأحزاب اليوم؟ قالوا: يا أم المؤمنين إنَّها (٧٣) آية، قالت: والله لقد كنَّا نقرأها على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) وإنَّها تعدل سورة البقرة، تجاوز المئين". فهذا القول كيف يمكن أن يُقبل؟ وكيف يمكن أن نستمر بتداوله؟ ونحن نعرف أنَّ الله (سبحانه وتعالى) هو الذي تكفَّل بنفسه بحفظ هذا القرآن والحيلولة دون نسيان أو تجاهل أو تحريف أي شيءٍ منه مهما كان، حتى لو كان كلمةً أو حرفًا.

فالقرآن المجيد هُوَ منبع كل خير في هذه العلوم أو المعارف، وكل مَا يؤخذ عليها أو يُنتقد من تفاصيلها أو كليَّاتها راجع بشكل أو بآخر إلى مدى قربها واتصالها وانفصالها عن القرآن الكريم. وقد حاول الإمام الرازي، وهو مَنْ هُوَ في علمه وجلال قدره وتفسيره الَّذِي يُعدّ موسوعة معرفيَّة في هذا المجال، أن يربط بين تلك العلوم وبين كتاب الله فأعدّ تفسيرًا؛ وضع فيه كثيرًا من قواعد أصول الفقه –وإن لم نقل وضعها كلها– وربطها بالقرآن الكريم، وكذلك فعل مع كثير من الأحكام الفقهيَّة والكلاميَّة، والبلاغة واللغة والنحو والتصريف والحديث وما إلى ذلك. فكأنَّ الإمام أراد أن يستدلّ على نفسه وعلى غيره من الفقهاء الذين إنَّما تشغلهم في فترة التكوين والتعلم والتعليم التفاصيل والجزئيَّات، ويستغرقون فيها دون التفات لربطها بالقرآن الكريم؛ لأنَّ هناك أمرًا مستبطنًا في قرارة كل نفس من تلك الأنفس، أنَّ قواعد الأصول والفقه والحديث النبويّ وما جاء به المفسرون وما جاء من علوم الكلام والعقائد، ذلك كلّه –وإن رُد إلى القرآن الكريم بشكل أو بآخر– ولكنَّه في الفترات الأولى من تكوينه كان الرد إلى القرآن الكريم على سبيل الاستشهاد بآيات الكتاب الكريم وتعضيد مَا توصل إليه أهل العلم خارجه، أو على الأقل مما صاغوه خارج القرآن الكريم ثم حاولوا

تعضيده وإضفاء الشرعيَّة عليه وربطه بالقرآن الكريم من خلال عمليَّة استشهاد، فكأنَّه –رحمه الله– حينما كتب تفسيره أراد أن يستدرك –ولو لم يصرّح بذلك– بأن يجعل القرآن الكريم منطلقًا لتلك العلوم. ولا شك أنَّ الإمام الرازي قد كتب تفسيره في وقت متأخِّر من عمره، وبعد أن نضجت خبراته واستوت علومه. فكأنَّه كان يقول: إذا كنا في بدء حياتنا العلميَّة وانشغالنا بالتعليم والتأليف اتخذنا من القرآن الكريم والأحاديث النبويَّة شواهد لما كنا نصوغه من قواعد علميَّة في أصول الفقه، أو الفقه، أو التفسير، أو الكلام، أو مَا إلى ذلك؛ فالآن سأعيد هذه العلوم من طريق التفسير أو بطريق التفسير إلى القرآن الكريم، ولعلّي بذلك أجعل القرآن الكريم لا مجرد شواهد معدودة أو أدلة سائدة، ولكن منبعًا ومنطلقًا وأساسًا؛ ولذلك جاء في وصيته أنَّه قال: "ولقد اختبرت الطرق الكلاميَّة والمناهج الفلسفيَّة، فلم أجد فيها مثل مَا وجدت في كتاب الله، أقول في الإثبات كذا وأقول كذا..... إلخ"، والمتأمل في وصيَّة الرجل يمكن أن يدرك هذا المعني بوضوح شديد.

وبالنسبة لي، فبعد تلك الجولة الطويلة مع التراث، وبعد أن تكوَّنت لديَّ حاسَّة نقديَّة مقلقة، لم تعد تسمح لي بأخذ شيء من ذلك التراث على أنَّه شيء من المسلَّمات، وكما نعلم فالقرآن المجيد والسنَّة النبويَّة لا تعد تراثًا، بل هِيَ منبعٌ ومنطلقٌ وأصلٌ للتراث. وقد وجدت الكتاب الكريم مما لا يمكن على الإطلاق أن يوجه إليه نقد معتبر ولا على مَا بني عليه بشكل منهجي دقيق. ولكن إذا كنا نجد ميدان النقد متسعًا؛ فإنَّ مَا نجده في التراث لم يأخذ حظه من الارتباط بالقرآن المجيد والبناء عليه.

لذلك فقد أخذتُ الدرس والعبرة من موقف الإمام الرازي، وقلت إنَّه يجب عليَّ أن أعود للقرآن الكريم قبل أن أبلغ المرحلة التي بلغها الإمام الرازي –رحمة الله عليه. ومن هنا بدأت أعمل على تكريس جميع دراستي في القرآن المجيد. والمزايا والدوافع كبيرة جدًّا. فهو الكتاب الكونيّ، ولا كتاب كونيّ في الوجود سواه؛ الآن بعد ختم النبوات بمحمد (صلى الله

عليه وآله وسلّم) وختم الكتب السماويَّة بالقرآن المجيد، وهو الكتاب المطلق، المعجز، المتحدي، الَّذِي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تعبير عن مراد الله (تبارك وتعالى) سواه. وحينما بدأت الفكرة تلحّ عليَّ وجدت في التفسير ذلك الركام الهائل من الإسرائيليَّات والقصص ونحوها، والفذلكات اللغويَّة والصرفيَّة والنحويَّة والبلاغيَّة والأحكام الفقهيَّة، وما سوى ذلك مما اعتبرته قد تحوَّل إلى حاجز وحائل بين الناس وبين القرآن الكريم، أو على الأقل بين الناس وبين التدبُّر في القرن الكريم؛ لأنَّهم وجدوا من تلك المعارف التي أدرجت في التفسير مثلًا يعدُّ بمثابة التفسير الفقهيّ أو تفسير لآيات الأحكام، وأصول الفقه أصّلت وقعّدت ورُبطت ببعض آيات الكتاب الكريم، لأدنى مناسبة، ولأقوى مناسبة، بحسب مَا كان يراه المؤصِّلون. كذلك كثيرٌ من القضايا التاريخيَّة والسنن وغيرها، ووجدتُ علومًا كثيرة من علوم القرآن الكريم ومعارفه لم يُلتفت إليها بقدر كافٍ لانشغال الناس بقضيَّة الأحكام. فإذن، لا بد من العودة إلى القرآن الكريم، فهو كتاب الاستخلاف وكتاب التوحيد والعمران والتزكية والأمَّة والدعوة، وهو الَّذِي يعطي كل ذي حقّ حقَّه فيما يتعلق بالله (تبارك وتعالى) من توحيد وسواه وفَّاه حقه وزاد، وهو منبع لأصحّ ألوان الاعتقاد وأنواعه ومراتبه، وهو أصحّ المصادر فيما يتعلّق ببيان الحقوق والواجبات وما إلى ذلك، وهو -قبل وبعد- الكتاب الَّذِي: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ **(فصلت:٤٢)**، وهو الكتاب الَّذِي فصَّله الله (تعالى) على علمه، الَّذِي لا يضيق بشيء، بل أحاط بكل شيء علمًا.

إذن، لا بد لنا من الارتباط بالقرآن الكريم، وربط مشاريعنا التجديديَّة والحضاريَّة به بشكل وثيق، وإلا فقد تستمر حالة التيه هذه التي نعيشها إلى فترات طويلة. وسوف نستمر ننطلق ونعود إلى النقطة التي انطلقنا منها أو بدأنا منها في عمليَّة تيه متصلة لا تتوقف؛ لذلك وجدت أنَّ في مراجعات التراث ونقده في نور هداية القرآن الكريم وسيلة من وسائل التجديد والاجتهاد وإعادة البناء الَّذِي ننادي به جميعًا. وعجزت كل الدعوات المنادية به عن

تحقيقه أو الوصول إليه، والقرآن الكريم يحدِّد لنا مجموعة من السنن والقوانين الاجتماعيَّة التي وصلت البشريَّة -بعد جهد جهيد- إلى مَا يقرب منها، وما يزال كثير منها بعيدًا عن متناول البشريَّة التي اتخذت هذا القرآن مهجورًا.

والقرآن المجيد -قبل هذا وبعده- صرَّف الله (تعالى) فيه من كل مثل، وفصَّله على علمه المحيط الشامل، وراجع فيه تراث النبوَّات، وصدق عليه وهيمن، وتناول فيه مستقبل البشريَّة، ورغَّب ورهَّب. رغَّب في السبل المنتجة القادرة على إعانة الإنسان على تحقيق الغاية من العهد الَّذِي أبرم بينه وبين الله (تعالى)، وفي الوقت نفسه تحقيق غاية الحق (جلّ شأنه) من الخلق، وإقامة هذه الحياة على قواعد ثابتة تجعل منها حياة طيِّبة، وتجعل من مرحلة الجزاء مرحلة تجعل مآل الإنسان إلى رضوان الله (تبارك وتعالى) وإلى جنَّته.

ووجدت أنَّ اللجوء للقرآن الكريم وتفسير القرآن بالقرآن، واستنباط المشاريع الحضاريَّة والاستخلافيَّة والعمرانيَّة، ومشاريع تزكية الإنسان وتزكية الحياة، أو مَا يمكن تسميته بالتزكية الشاملة التي تشمل العقل والتصوُّر والرؤية والفكر والاعتقاد والسلوك وأنظمة التعامل والعلاقات. كل ذلك تستطيع أن تحصل عليه وتجده واضحًا في القرآن الكريم. وإذا عرفنا المداخل التي نقاربه بها ونلج إلى رحابه بواسطتها؛ فالقرآن الكريم هُوَ أولى أن يُفصح عن نفسه ويُبيِّن مكنون آياته ويعرِّف بما جاء فيه، فالقرآن الكريم يأتي في سياق مَا على الإيجاز، وفي سياق آخر على الإطناب، ويأتي في سياق آخر على الإجمال لا بمعنى الإبهام، وفي سياق آخر على التفصيل والتبيين، ويأتي في سياق مطلقًا، وفي سياق آخر مقيَّدًا، وفي سياق يكون عامًا، وفي سياق آخر ينتهي إلى الخصوص وما توجزه آيات الكتاب الكريم في سياق نجم من نجوم القرآن الكريم أو في سورة تجده مبسوطًا في مكان آخر مضافًا دون تكرار. وما يُجمله في موضع يُفصله في موضع آخر، وهكذا يُطلق ويُخصِّص ويُقيِّد ويُعمِّم. وكل ذلك تجده في الكتاب الكريم.

من هنا فإنَّ مَنْ رُزق مداخل التدبُّر[15] ومداخل الولوج إلى رحاب القرآن المجيد يجد نفسه قادرًا على الوصول إلى مَا لا يمكن أن توصِّله إليه المعارف الأخرى، ومنها المعارف التي سُمِّيت بالمعارف أو العلوم الشرعيَّة.

للتفسير أنواع كثيرة كما ذكرنا؛ فمنها التفسير بالآثار المنقولة عن السلف، والتفسير اللغويّ والبيانيّ، والتفسير الإشاريّ، والتفسير الفقهيّ، والتفسير العقليّ، والتفسير العلميّ، والموضوعيّ. ويُطرح الآن توجه نحو التفسير الفلسفيّ. لقد سنَّ لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) «**تفسير القرآن بالقرآن**»، فجُلّ ما ورد في صحيح المنقول عنه (صلى الله عليه وآله وسلّم) في التفسير كان من نوع «**تفسير القرآن بالقرآن**» حين تظهر الحاجة إلى

---

[15] ومداخل القرآن الكريم هي:

١. مدخل تفسير القرآن بالقرآن.
٢. مدخل تفسير القرآن بالسنَّة النبويَّة المطهرة وبالسيرة والهدي النبوي.
٣. مدخل الغيب والشهادة.
٤. مدخل عمود السورة.
٥. مدخل الجمع بين القراءتين.
٦. مدخل العقيدة والشريعة، والحلال والحرام.
٧. مدخل الوحدة البنائيَّة.
٨. مدخل القراءة بالقلم وبالخلق.
٩. مدخل الأزمات وطلب الحلول.
١٠. مدخل النبوَّات وقصص الأنبياء وبناء الأمم.
١١. مدخل السنن الكونيَّة والاجتماعيَّة.
١٢. مدخل الأخلاق والسلوك، وآثارها في حياة الأفراد والأمم.
١٣. مدخل الاستخلاف.
١٤. مدخل القيم والمقاصد؛ التوحيد والتزكيَّة والعمران والأمَّة والدعوة.
١٥. مدخل البحث في الأمثال والقصص.
١٦. مدخل الإصلاح والصلاح والفساد.
١٧. مدخل تصنيف البشر وفقًا لمواقفهم من قضيَّة الإيمان والكفر.
١٨. مدخل العلاقات بين الإنسان والطبيعة والحياة.
١٩- مدخل تنزيه القرآن عن المطاعن (فلا نسخ، ولا متشابه بمعنى غامض، ولا تكرار، ولا مترادف ...).

التفسير اللفظيّ؛ أمَّا التفسير العمليّ والتطبيقيّ فسنَّته وسيرته -كلّها- عبارة عن تفسير للقرآن المجيد، فسنَّته هي القرآن، وسيرته هي القرآن، وخلقه هو القرآن (صلى الله عليه وآله وسلّم)، وسائر أنواع التفسير التي ذكرناها تطرح تساؤلًا خطيرًا، هو: إنَّ القرآن المجيد قد وُصف بأنَّه بيان ومبين ونور وميسر للذكر... إلى غير ذلك، مما يدل على وضوحه وعدم حاجته إلى وسيط يقوم ببيانه وتوضيحه، بحيث يفترض ألَّا يحتاج هذا النور والكتاب المبين إلى مَنْ يفسره ليعرف الآخرون معانيه، والمراد به. فلم يُعتنى بهذا الوسيط: «التفسير» أيًّا كان نوعه؟! ما دامت غاياته في النهاية تقريب معاني القرآن إلى أفهام المخاطبين به الذين يفترض القرآن أنَّهم مهيؤون للانفعال به والاهتداء بهدايته إذا تلوه حق تلاوته وتدبَّروه، وتفكَّروا فيه، وتعقَّلوا آياته، وتذكَّروا مضامينه وأهدافه ومقاصده، وأنَّهم مطالبون باتباعه، وبناء حياتهم وعمرانهم وحضاراتهم وفقًا لما نزل به من هداية. كما أنَّهم مكلَّفون بمعالجة اختلافاتهم، وردّ خصوماتهم إليه، والرضا بحكمه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ (آل عمران:٢٣). ولم يعلّل إعراضهم بعدم فهم الخطاب، بل علَّل بعلَّة أخرى خاصَّة بهم: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ (آل عمران:٢٤). فالإعراض وعدم الفقه يأتي من انعدام استعدادات المخاطبين. أمَّا الخطاب القرآني فلا اختلاف فيه؛ لأنَّه من عند الله (سبحانه وتعالى). والاختلاف آفة يمكن أن تعتري الخطاب النسبي، أمَّا خطاب العزيز العليم، الذي أحاط بكل شيء علمًا، والكتاب الذي فصَّله الله (تبارك وتعالى) على علمه وبعلمه فلن يكون عرضةً لأيَّة آفة من تلك الآفات. فالتفسير الإنسانيّ -أيًّا كان علم المفسر وجلالة قدره- لا يمكن أن يكون أبين من القرآن الكريم ولا أوضح. و«**تنوير النور**» أو «**إضاءة الضوء ومصدره**» أمر يتجاوز بعبثيَّته تحصيل الحاصل؛ ولذلك فإنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) لم يفسِّر من القرآن بـ«**المعنى المعرفيّ**» للتفسير إلَّا آيات معدودات علَّمه إياه جبريل -عليه السلام-؛ أي: نقل جبريل إليه (صلى الله عليه وآله وسلّم) تفسيرهن لحكمة أرادها (سبحانه وتعالى). ولعلّ هذه الحكمة من بعض جوانبها تعليم

الله (تبارك وتعالى) لنبيِّه كيف يعلِّم الناس الكتاب والحكمة، وجُلّ ذلك يمكن أن يندرج في مجالات تفسير القرآن بالقرآن[١٦].

وذلك يعني أنَّ التفسير بمفهومه الاصطلاحيّ -فيما عدا ما فسره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) إن هو إلَّا جهد بشريّ يستخدم المفسرون فيه جهودهم وأدواتهم ومعارفهم المختلفة ليتكوَّن لهم فهم، يُؤخذ منه ويُترك. فالحكم في قبوله أو ردِّه إلى الله (تبارك وتعالى). فالقرآن المجيد يفسر بعضه بعضًا. فما هُوَ «**تفسير القرآن بالقرآن**»؟ أحببنا أن نقرِّبه إلى الأذهان في هذا التعبير، وإلَّا فهو أكثر من أن يكون تفسيرًا، ولا نريد أن يغلب عليه مفهوم التفسير أو معنى التفسير الاصطلاحي الَّذِي درج المفسرون على استخدامه؛ ألا وهو معرفة ألفاظ القرآن أو التعريف بألفاظ القرآن، ولكن وجدنا هذه العبارة أو هذا العنوان مناسبًا.

يقوم «**تفسير القرآن بالقرآن**» لا على الناحية الموضوعيَّة كما ذهب إلى ذلك بعض المشتغلين بالتفسير. وقد ظنُّوا إنَّ «**تفسير القرآن بالقرآن**» هو أن تجمع الآيات التي تتعلق بموضوع مَا في موضع واحد، وتربط بينها وتنظر في تواريخ نزولها وأسباب النزول وما إلى ذلك حتى تتضح لك معاني الموضوع. و«**التفسير الموضوعيّ**» نوعٌ من أنواع التفاسير المهمة ولا شك، والمقرَّبة إلى مَا نحن بصدده ولا شك كذلك. ولكن «**تفسير القرآن بالقرآن**» _الَّذِي نريده_ فيه مزايا التفسير الموضوعيّ، ولكنه يستوعبها ويتجاوزها. فمرحلة النظر الموضوعيّ مرحلة يصعب أن يتخطَّاها معنى تدبُّر القرآن الكريم وتأمله. لكن «**تفسير القرآن بالقرآن**» كما قلنا يتجاوز ذلك كلَّه، فهو تفسير وتدبُّر وتأمل وتفكر وتعقل وتذكير وترتيل في القرآن

---

(١٦) إنّ رسول الله ﷺ ترك للناس مع كتاب الله سنته وسيرته، وللسنّة والسيرة مفهومها وللتفسير مفهومه، ولو أنّ رسول الله ﷺ فسّر آيات الكتاب الكريم كلّها، بالمفهوم الاصطلاحيّ للتفسير لما جاز لأحد أن يفسر القرآن العظيم بما لم يفسره به رسول الله ﷺ ولوقع كل أولئك المفسرين ومنهم الصحابة والتابعون الذين أثرت عنهم مأثورات كثيرة في التفسير تحت طائلة الوعيد النبويّ، وما فائدة الأمر بالتدبر إذا كان مَنْ أُنزل عليه القرآن العظيم قد فسره كلّه؟ وكيف سطّر الفقهاء من أهل الحديث وأهل الرأي كل تلك الفهوم بأحاديث تفسير؛ أي: أنّ رسول الله ﷺ قد ذكر كل تلك المسائل في تفسيره.

لقد ذكر فخر الدين الرازي في مقدمة تفسيره بأنّه لو شاء أن يضع في تفسير الفاتحة وحدها وقر بعير لفعل دون أن يفرغ من معانيها؛ فهل قصد هو وأمثاله أن يرووا عن النبي ﷺ؟ وما حكم هؤلاء وتفاسيرهم التي بلغت الآلاف إذا كان هناك تفسير نبويّ تجاوزوه بما في ذلك أولئك الذين جمعوا أقوال الصحابة والتابعين في التفسير؟! إنّ الفرق كبير جدًّا بين السنّة والسيرة والتفسير، فإنّ سنّة رسول الله ﷺ مجموع أقواله وأفعاله وتقريراته وهي قطعًا بيان القرآن، لكنّها لا تسمى تفسيرًا بمعناه الاصطلاحيّ، ولذلك فإنّ رسول الله ﷺ لم يترك تفسيرًا. في ضوء ذلك ينبغي أن يراجع موضوع «التفسير المأثور».

المجيد، يستخدم كل تلك المداخل ويتوسل بكل تلك الوسائل ليكون القرآن الكريم المرجع الأساس في فهم القرآن المجيد ذاته، وفي فهم كل مَا جاء ليعلِّم البشريَّة إياه، سواء تعلَّق بالأحكام أو العبر أو السنن أو القوانين أو بناء الحضارات أو بناء العمران، وتحقيق التزكية، وتحقيق التوحيد، وبناء التصوُّر السليم، وبناء المعتقد الصحيح، كل ذلك تجده في القرآن الكريم. فالقرآن الكريم قد يسَّره الله (تبارك وتعالى) للذكر. ولو بذل الناس في تدبُّر القرآن المجيد ومحاولة فهمه جزءًا مما بذلوه في تعلُّم العلوم الأخرى -التي وضعوها بأنفسهم بتصور أو بحجة أنَّها هِيَ التي ستمهد إليهم السبيل لفهم القرآن- لو بذلوا جزءًا من هذه الجهود مع القرآن الكريم ذاته، في تدبُّره، وفي ترتيله، وفي حسن تلاوته، وتلاوته حق التلاوة، أو في التفكُّر فيه والتعقُّل والتدبُّر والتذكُّر والعمل على الوصول إلى مكنونه من داخله وبأدواته وبمنهجه؛ لنالهم خيرٌ كثيرٌ، ولتجنَّبوا كثيرًا من السلبيَّات التي يشتكي منها المتخصصون في كثير من تلك الجوانب.

لذلك نود أن نقول: إنَّنا حينما كنا نحاول تعلُّم هذا النوع من الممارسة رجعنا أيضًا إلى تراثنا، وحاولنا أن نرى كيف كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) يُفسِّر مَا يشعر بالحاجة إلى تفسيره لأصحابه -رضوان الله تعالى عليهم. فإذا به (صلوات الله وسلامه عليه) لا يستخدم في تفسير القرآن إلا القرآن ذاته. فحينما يُهرع إليه الصحابة خائفين بعد أن نزل قوله (تعالى): ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة:٢٨٤). (قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية: ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة:٢٨٤). جاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأناس من الأنصار إلى النبي (ﷺ) فجثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله،

والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية، إنَّ أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه، وأنَّ له الدنيا وما فيها، وإنَّا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا هلكنا والله، فقال النبي (ﷺ): هكذا أنزلت، فقالوا: هلكنا وكلفنا من العمل ما لا نطيق، قال: فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿.. **قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ..﴾ **(البقرة:٩٣)**، قولوا: سمعنا وأطعنا فقالوا: سمعنا وأطعنا، واشتد ذلك عليهم، فمكثوا بذلك حولًا، فأنزل الله (تعالى) الفرج والراحة بقوله: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ (البقرة:٢٨٦) الآية، فنسخت هذه الآية ما قبلها، قال النبي (ﷺ): إنَّ الله قد تجاوز لأمتي ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به)[١٧]، فردَّهم إلى آية أخرى من آيات الكتاب الكريم يُجيبهم بها على تساؤلهم. ترفع عن صدورهم ذلك الحرج الَّذِي أحسُّوه حينما سمعوا الآية الأولى. وليس بين الآيتين نسخ كما ذكر الواحدي بل تعد الآية الثانية ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ (البقرة:٢٨٦) مفسرة ومبينة ل﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة:٢٨٤)، فهو من قبيل رد المحكم إلى المفصل، للوصول إلى المعنى المراد، فكأنه قال: لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ولكن ما تعمدته القلوب وقصدته الأنفس سواء أكان خفيًا أم باديًا معلنًا فإنَّه عرضة للحساب، والله حكم عدل لا يحاسب على الإكراه، ولا على الخواطر العابرة بل يحاسب على ما تعمَّدت القلوب وقصدت الأنفس ظلمًا وجحودًا وعدوانًا، لكن المتقدمين كانوا يستسهلون القول بالنسخ، فأطلق الواحدي ذلك.

ويأتي الصحابة إلى رسول الله ذات يوم يسألونه (صلوات الله وسلامه عليه): مَنْ منَّا يا رسول الله يستطيع أن يتّقي الله حق تقاته؟ بعد أن نزل قوله (جلّ شأنه) في سورة آل عمران: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (آل

[١٧] أسباب النزول، الواحدي، ص٦١.

عمران:١٠٢)، فأخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) بأيديهم إلى آية سورة التغابن: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ (التغابن:١٥). إذن هناك مناط مبدئي ومنهجيّ. ألا وهو استطاعة الإنسان: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ (البقرة:٢٨٦)، ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا**﴾ (الطلاق:٧)، ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ (التغابن:١٦)، وما إلى ذلك. وهذا من «**تفسير القرآن بالقرآن**». وكان في مقدور رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) أن يقول شيئًا من عنده أو بألفاظه، ولكن أراد أن يسنّ لهم هذه السنَّة، سنَّة «**تفسير القرآن بالقرآن**».

وحينما يأتي إلى رسول الله مَنْ يشعر بشيء من شبهة وهو يسمع آية سورة الزمر: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ (الزمر:٥٣)، فهنا «جميعًا» للتأكيد، وقد أفادت الشمول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾. ونأتي إلى آية في سورة النساء إذا بها تقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ (النساء:٤٨). إذن استثنى الشرك هنا من الذنوب القابلة للغفران. وكأنَّ الشرك في هذه الآية الكريمة مما لا يغتفر، أو من الذنوب التي لا تغتفر. وذلك مفهوم كذلك؛ لأنَّ الشرك ظلم عظيم. وهو ظلم لذات الإنسان ونفسه قبل أن يكون ظلمًا لشيء آخر. فهو ظلم لخالق الإنسان والكون والحياة ونقض للعهد الَّذِي أُبرم بين الله (تعالى) وبين عباده وهم في «عالم الذّر». والشرك انقلاب على رسالات النبيّين كافَّة الذين جاءوا بالتوحيد. وتأتي آية ثالثة في سورة طه وتقول: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢). إذن نحن هنا أمام آيات ثلاثة: واحدة أطلقت تمامًا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ ولم تستثنِ. وأخرى استثنت الشرك، وثالثة بيَّنت لنا شروط التوبة، وهي تنسجم مع قوله (تعالى) في سورة النساء: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا**

حَكِيمًا*وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء:١٧،١٨).

فهنا تبيّن هذه الآيات بوضوح شديد أنَّ قبول التوبة حق للعبد على ربّه (جلّ شأنه)، ولكن بشروط. ومن هذه الشروط: أن يكون الذنب قد وقع بجهالة، إذا كان قد وقع عن علم ومعرفة وتعمُّد –مثل معصية إبليس– فالأمر يختلف. فالله (تبارك وتعالى) قد طرد إبليس من رحمته، لا لمجرد أنَّه عصي ولم يلقِّنه التوبة كما لقِّن آدم. ولكن على العكس، طرده من رحمته بشكل أبدي لأنَّه كان عالمًا بقضيَّة الطاعة والمعصية، وعالمًا بأنَّه لا ينبغي أن يعصي عبد حقيقي الله (تعالى) لأيّ سبب من الأسباب. ولكن كبره وغروره حملاه على أن يعصي الله (تعالى) وهو ينكر حكمته (جلّ شأنه) في أمره له بالسجود لآدم، وفي اصطفاء آدم. فبقيَّة الملائكة سلَّمت لله (تبارك وتعالى) بعد أن علَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، سلَّمت أنَّه هُوَ المؤهل لأن يكون خليفة في هذه الأرض، وأمسكت عن التساؤل، وسجد الملائكة كلهم أجمعون حينما أُمروا، مع أنَّهم كانوا قد أبدوا اعتراضًا –وإن لم يزد– ففيه تفاصيل أنَّهم قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ**﴾ (البقرة:٣٠)، فتمَّ تسليمهم. أمَّا إبليس فقال: ﴿**أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**﴾ (الإسراء:٦١)، فكان عنده نوع من الشعور بالغرور والاستعلاء والاستكبار حتى على ربه (جلّ شأنه)، ونفى عن الله (تعالى) الحكمة في الأمر وفي الاصطفاء، كأنَّه (تعالى جلّ شأنه)، حينما أمره بالسجود، لم ينظر إلى أصله الذي خلقه منه، والذي يراه أشرف من أصل آدم، فكان كبره وغروره واغتراره بأصله سبب في تدميره، ووقوعه في تلك الجريمة النكراء الشاملة النافية لكل معاني الربوبيَّة والإلهيَّة، النافية لحكمة الألوهيَّة والربوبيَّة، المتغطرسة المتكبرة المغرورة، لم يكن لها علاج إلا الطرد. وإلا لو كان هناك مجال قد تركه إبليس في معصيته كمجال آدم، بأن يكون قد عصى عن جهل، لربَّما لقَّنه الله (تبارك وتعالى) التوبة، كما لقَّن آدم: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ**

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:٣٧). ولكن جريمته لم تكن تتقبَّل أو تحتمل بأيّ شكل من الأشكال أن يُلقَّن التوبة. كما أنَّه لم يُفكِّر فيها بنفسه، على العكس كان يحاول أن يحصل على فسحة من الأجل والعمر يعبر بها عن غروره وطغيانه وتمرده، قال: ﴿**فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾** (الحجر:٣٦،٣٧)، قال: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** (الحجر:٣٩). إذن هناك معاندة مع سبق الإصرار دون أيّ تردد، مع وضوح كامل لطبيعة الجريمة التي يرتكبها. ولكنَّه يرتكبها عنادًا وصلفًا وغرورًا واستكبارًا واستعلاءً على أوامر الله (تبارك وتعالى).

فهنا نعود إلى الآيات الثلاثة. نجد أنَّ آيات الزمر سيقت لاستئصال القنوت من نفس الإنسان؛ فقد رأينا ماذا حدث حين قنط إبليس. حدث أن صمَّم على الاستمرار في المعصية والتمرُّد وعمل السوء إلى يوم الدين. فالقنوط حالة نفسيَّة خطيرة، قد تدفع الإنسان إلى ارتكاب الشرور والإغراق فيها. فإذا كان الإنسان قد وقع في شر، فقد يقع بعد القنوط في عشرة أنواع منه. وإذا كان قد وقع في معصية فقد يمارس بعد القنوط مائة. وهكذا، فاقتضى السياق أن يُزال القنوط من نفس الإنسان: ﴿**لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾** (الزمر:٥٣). إنَّ له (جلّ شأنه) القدرة على غفران الذنوب جميعًا، فإذن لا تقنطوا ولا تيأسوا. فإذا عرفت كيف تتوب وكيف تمارس التوبة كما أمرك الله (تبارك وتعالى) فهناك أمل أن يتوب الله (تعالى) عليك ويجعلك كمن لا ذنب له. فالسياق إذن متَّجه إلى قضيَّة القنوط، وليس لقضيَّة بيان أنواع الذنوب ومحاربتها، وما يغفر منها وما لا يغفر. أمَّا آية سورة النساء، فهي تتحدث في جوّ فيه أناس: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾** **(النساء:١٣٧)** أولئك لن تقبل توبتهم؛ لأنَّ الله لا يقبل أن يُشرك به ويَغفر مَا دون ذلك لمن يشاء. فكل ذنوبهم عدا الشرك، وهو الذنب الأساسيّ الَّذِي أصرّوا عليه وكرَّروه ومارسوه

عدة مرات؛ يؤمنون ثم يكفرون، ثم يؤمنون ثم يكفرون، ثمَّ يزدادون كفرًا، هؤلاء لن تُقبل توبتهم بعد ذلك، وبعد تكرار هذا الذنب مع وعي وسبق إصرار وإدراك لمعنى مَا يقومون به: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ (النساء:٤٨). فعلى الإنسان أن يكون حذرًا من الوقوع في الشرك؛ لأنَّ الشرك ظلم عظيم، وعلى الإنسان -حينما يوفِّقه الله (تعالى) ويكشف له عن مضار الشرك وينتقل إلى صفوف الإيمان- فعليه ألَّا يخرج منها مرة أخرى؛ لأنَّه يخشى أن يقع في الشرك مرة ثانية، فلا يستطيع أن يخرج منه، وبالتالي لن تُقبل له توبة بعد الاستغراق في الشرك، وتكراره مرة بعد مرة، والاستهانة به كذنب عظيم. أمَّا الآية الثالثة، فهي آية سورة طه ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢)، أراد أن يُبيِّن لنا التوبة من حيث الشروط التي لا بد من توافرها في التائب لكي تُقبل توبته، فهي مبيِّنة ومنسجمة مع قوله (تعالى) في سورة النساء: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ (النساء:١٧). فحينما يقول الله (تعالى) في سورة طه: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢). فالكلام هنا عن التائب، والشروط التي لا بد أن يوفِّرها في نفسه، والأمور التي لا بد أن يلتزمها من أجل أن تُقبل توبته: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ **(طه:٨٢)**. إذا تاب ورجع إلى الله وأناب، ولتكون التوبة نصوح لمَن تاب وآمن. لا شك أنَّ الَّذِي يتوب لا بد أن يكون له إيمان. فكأنَّ إعادة ذكر الإيمان بعد التوبة للتنبيه على أنَّ هذه التوبة تقتضي إيمانًا لا يشوبه ولا يُخالطه شرك ولا انحراف في المعتقد لمَن تاب وآمن وعمل صالحًا واستقام. أمَّا مَنْ أناب فقط ولم تحصل له التوبة العقديَّة أو التصحيح العقديّ فلا تُقبل التوبة. وإنَّما لا بد من تصحيح عقديّ: ﴿**لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢). لا بد أن يصدق الاعتقاد والإيمان، ويُبرهن على صدق التوبة وكونها

توبة نصوحًا بالعمل الصالح والاستقامة عليه والاستمرار فيه وعدم الرجوع عنه بعد التوبة؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى نوع من العبث واللعب الَّذِي لا يقبله الله تعالى: ﴿**لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ (طه:٨٢). وهذا كلّه من «تفسير القرآن الكريم بالقرآن»، وهو أرقى أنواع التفسير كما قلنا. وأنت ترى أنَّك حين تمارس هذا ترفع عن نفسك سائر الشبهات وتزيل سائر الاعتراضات إن كان ثمة مَا يستحق الاعتراض، كأن يكون مشتبهًا لِمَ أُطلق هنا، ولما قُيِّد هناك... إلى غير ذلك. هذا لا يمكن أن يرد ولا يمكن أن يوجد؛ لأنَّ القرآن الكريم شفاءٌ لما في الصدور، فحينما نفسر القرآن بالقرآن، أو حين يُفسر القرآن نفسه فإنَّما يشفى بذلك صدور الناس، وليس كمثل ذلك أي تفسير آخر، أو الاعتماد على أيّ تأويل آخر.

والأمثلة السابقة في مقاربة رسول الله للقرآن، توضح أن تفسير القرآن بالقرآن، أمر أصَّله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) وبدأ به وعلَّمه الناس. كما توضح أهميَّة اعتبار مبدأ الوحدة البنائيَّة، والتي تقوم على مبدأ أنَّ في القرآن مداخل لا بد أن تستعمل للولوج إلى رحابه والوصول إلى دقائقه، فهو -أي القرآن- ميسَّر للذكر، ومستوعب مكنون. يقوم مقام النبوّات كلّها ومقام النبيّين كافَّة، وهو في البشريَّة الآن بمثابة النبي المقيم بين ظهراني الناس، يستطيعون العودة إليه والرجوع إليه في كل حين. فإذن لابد من الالتفات إلى أنَّ هذا التفسير يقوم على مبدأ أنَّ القرآن الكريم مبيِّن. وأعلى درجات بيانه هي بيانه لنفسه. والقرآن تبيان لكل شيء؛ بما في ذلك السنَّة النبويَّة المطهرة، وكما قلنا فقد مارس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) هذا، وعلَّمه لأصحابه، ووصفت آياته بأنَّها بينات ومبينات.

ولذلك فقد وجدنا أنَّ علينا واجبًا عينيًّا وهو أن نقوم بما لم يقم به الآخرون فنجتهد في تقديم القرآن للبشريَّة كما أنزله الله على رسوله الكريم الذي حفظه بنظمه الداخليّ وأسلوبه وفصاحته وإعجازه من أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ورأينا أن نحمي

العقول المؤمنة من أن تذهب نهبًا للإسرائيليّات والأكاذيب والموضوعات والمعلقات والمراسيل وما أحاط بما دوّن مما سمّي بعلوم القرآن وهو عبء عليه مثل الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه وما إلى ذلك. فأردنا أن نقدّم للناس كتاب الله كما أجمعت الأمّة عليه في عهد الإمام الشهيد أمير المؤمنين عثمان بن عفان –رضي الله عنه- الذي وضع حدًّا لتلك الاختلافات والمنازعات وتجاوز تلك الآثار والأحاديث التي أدت إلى اختلاف الناس في أحرفٍ وكلمات، حيث روي "أنَّ حُذَيفَةَ بنَ اليَمانِ قدِم على عُثمانَ، وكان يُغازي أهلَ الشامِ في فتحِ أرمينِيَّةَ وأذرَبيجانَ معَ أهلِ العراقِ، فأفزَع حُذَيفَةَ اختلافُهم في القراءةِ، فقال حُذَيفَةُ لعُثمانَ: يا أميرَ المؤمنينَ، أدرِكْ هذه الأُمَّةَ قبلَ أن يَختَلِفوا في الكتابِ، اختِلافَ اليهودِ والنصارى. فأرسَل عُثمانُ إلى حفصةَ: أن أرسِلي إلينا بالصحُفِ ننسَخُها في المصاحفِ ثم نَرُدُّها إليكِ، فأرسَلَتْ بها حفصةُ إلى عُثمانَ، فأمَر زيدَ بنَ ثابتٍ، وعبدَ اللهِ بنَ الزُّبَيرِ، وسعيدَ بنَ العاصِ، وعبدَ الرحمنِ بنَ الحارثِ بنِ هشامٍ، فنسَخوها في المصاحفِ، وقال عُثمانُ للرَّهطِ القُرَيشِيينَ الثلاثةِ: إذا اختَلَفتُم أنتم وزيدُ بنُ ثابتٍ في شيءٍ منَ القرآنِ فاكتُبوه بلسانِ قريشٍ، فإنما نزَل بلسانِهم، ففعَلوا، حتى إذا نسَخوا الصحُفَ في المصاحفِ ردَّ عُثمانُ الصحُفَ إلى حفصةَ، وأرسَل إلى كلِّ أُفُقٍ بمصحفٍ مما نسَخوا، وأمَر بما سواه منَ القرآنِ في كلِّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحرَقَ"[١٨]، وذلك جزءٌ من الحفظ الإلهيّ للقرآن الكريم بحيث انضبطت بنائيّة القرآن كما انضبطت بنائيّة النجوم في مواقعها ولم يعد هناك مجالٌ لزيادة حرف أو نقصان نبرة.

وليت المسلمين التزموا بذلك، وجعلوا ما روي من قراءات سبع أو عشر أو سواها نوعا من التفسير، أو أنه الرخصة التي كانت قائمة في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن العرب بقبائلهم المختلفة ولهجاتهم المتنوعة كان لسان القرآن صعبا على بعضهم، فرخص رسول الله

[١٨] الراوي: أنس بن مالك، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: ٤٩٨٧، خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(ﷺ) اتباعا لما جاء في القرآن من أنه قد يسره الله للذكر، وشجع القارئين على أن يقرؤوا كما يحسنون، من قبيل التيسير عليهم، لكن هذه الرخصة قد انتهت بوفاته (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومصحف عثمان كان ينبغي أن يكون المصحف الإمام الذي لا يخرج أحد عن قراءته، ويبدو أن هناك أسبابا كثيرة دفعت إلى إعادة رواية تيسير الذكر للمتذكرين التي كانت في عهد رسول الله (ﷺ)، فتم استحياؤها وتناقلها الرواة، فجاء بعضها على مخالفة المصحف العثماني، وما يزال الناس يقرؤون بها، ويتفاخر القرّاء بحفظهم لها، وإتقانهم لروايتها، ولذلك فقد بقي هذا الباب مفتوحا، وتحول إلى علم للقراءات فيما بعد، غفر الله لنا ولهم أجمعين.

ولقد آن الأوان لأن نعيد النظر في البرامج الخاصَّة باللغات، وبعلوم القرآن، وأصول الدين، وأصول الفقه، لإنقاذ القرآن المجيد مما رماه به البعض من عيوب الكلام الإنساني، الذي لا يليق بالكلام الإلهي، ولا يقبل بأي حال من الأحوال، ولابد من تنقية برامجنا التعليميَّة من تلك الآفات التي أساءت لعلاقتنا بالقرآن المجيد، وبحسن فهمنا له، وتدبرنا لآياته، واستبدالها بما يقربنا من القرآن ويشدنا إليه، ويعيد بناء وعينا به، ونعيد بذلك تشكيل مرجعيَّتنا العليا، وإزالة الغبش عنها، والتناقض والضعف الذي لحق بها، والأمل كبير في جهود الإمام الأكبر ومن معه في تجديد الخطاب الديني، لتجديد هذه المعارف وإعادة بنائها بناءً سليمًا، يخدم كتاب الله، ويعين التالين له على حسن فهمه وتدبره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

"المفبركان الباطل" لا "الفرقان الحق"

المقدمة:

إنَّ العمل على إشاعة الوعي بتفسير القرآن بالقرآن سوف يساعد -إن شاء الله- على التخلُّص من ربط بعض الفرق والتيارات الدينيَّة آيات الكتاب الكريم ومعانيها بالإسرائيليَّات، والقصص الخرافيَّة لدى السابقين، وما إليها.

وفي عصرنا هذا تشتد حاجتنا إلى أن ننشر الوعي والخبرة والقدرة على تفسير القرآن بالقرآن بين الناس، فذلك سوف يعصم القرآن الكريم من تلك المحاولات السقيمة التي أرادت وما تزال إحياء الشبهات القديمة ودسها على القرآن المجيد واختلاق شبهات معاصرة، لتكون حاجزًا بين البشريَّة وبين القرآن المجيد الذي يحمل وحده العلاج الشافي لها من سائر أمراضها التي تكاد تقضي عليها، ويعطيها المناعة اللازمة ضد عوامل الفساد التي صارت تملأ البر والبحر والجو.

إنَّ البشريَّة الغافلة، وعجز المسلمين، جعل القرآن الكريم ليس غريبًا عن الإنسانيَّة اليوم فحسب، بل جعله غريمًا من ناحية، وأفسحت المجال لافتعال أعداء القرآن معارك ضده، والعمل على الإساءة إليه، وتشويه سمعته، ومحاولة عزله عن البشريَّة، وعزل البشريَّة عنه، لئلا تكتشف البشريَّة طريق الخلاص الوحيد، الذي يشتمل القرآن عليه ويدعو إليه.

وقد أصدرت بعض الجهات المعادية للقرآن الضالة ما سمَّته "الفرقان الحق" قبل عدة سنين، وحاولت فيه تأليف ووضع سبعين قضيَّة سمتها سورًا؛ للإمعان بالتضليل، وقد أطلقنا عليه في حينه "المفبركان" بدلًا من ذلك الاسم الذي أرادوا تدنيسه ألا وهو "الفرقان".

إنَّ تفسير القرآن بالقرآن سوف يعيد ارتباط المسلمين به، ويعيد بناء وعيهم عليه، ويردهم إلى القرآن ردًا جميلًا، ويجعله على الدوام حاضرًا بينهم، ويجعلهم باستمرار على ذكر له، وتطلع

إليه باعتباره النبي المقيم، والدواء الشافي، والتبصرة والبصائر، والهادي والمرشد، والمخرج من الظلمات إلى النور.

ونقول لأصحاب هذه المحاولات الضالة: إنَّكم لن تنالوا من القرآن نيلًا، فقد عصمه الله (جل شأنه) وحفظه بنفسه، ولم يوكل حفظه إلى رجال دين أو دنيا من أولئك الذين استحفظوا الكتب السابقة فضيعوها، ﴿.. **بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء** ..﴾ (**المائدة: ٤٤**)؛ ولذلك فإنَّا نؤكِّد على أهل العلم وأهل القرآن والعاملين في حقول خدمة القرآن تحفيظًا وتدريسًا وغيره أن نحرص جميعًا على التدرب على تفسير القرآن بالقرآن، لكي يكون مركز الدائرة في ثقافتنا ومعرفتنا وبناء شخصيَّاتنا، وتطهير نفسيَّاتنا، وإعادة بناء عقولنا.

فنحن نحتاج إلى هذا النوع من التفسير، لكيلا يغلق الطريق إلى القرآن أمام البشريَّة المعذبة اليوم، ولكي نزيل الحواجز بين القرآن والإنسان، ولعلي أشير إلى تلك المحاولة السقيمة التي هي محاولة من مئات المحاولات المعادية والمناهضة للقرآن الكريم، التي اختلقها وروج لها أعداء القرآن والإنسان.

"المفبركان الباطل" لا "الفرقان الحق"[١٩]

فيما كنت أعد الحلقات الأولى من "الدراسات القرآنيّة" للنشر إذا بكتاب تافه متهالك لفقته مجموعة من "صنائع المرجفين" و"مأجورى الدَّجالين" في بلاد المسلمين، لموالاة الضرب على أدمغتهم، وتدمير ثقتهم بالله ثم بدينهم، ومصادر هذا الدين، وبخاصة "المصدر المنشئ للدين والكاشف عنه" القرآن المجيد الكريم المكنون.

الكتاب التافه نعته المرجفون" بالفرقان الحق" زيادة في التضليل، وإمعانًا في الاستهتار بالإسلام والمسلمين، ومصادر الإسلام. ويبدو أنَّ هؤلاء المرجفين قد غرَّهم هذا الحال التعيس الذي يعيشه المسلمون، ويتخبطون فيه – اليوم – فسوَّل لهم طغيانهم وشياطينهم ودجاجلتهم، وصوروا لهم أنَّ الطريق للإجهاز على المسلمين وإنهاء أمتهم، وتدميرهم بضربة قاضية صار سالكًا، وذلك باللَّغو في مصدر بناء شخصيَّتهم الإسلاميَّة، وإقامة أمَّتهم، والتأليف بين قلوبهم، وتحقيق وحدتهم، وينبوع الهدى، ومصدر النور، وكتاب الحق والحقيقة، وحافظ رسالات النبيِّين كافة.

اعتداء على البشريّة كلها:

وما درى المرجفون أنَّهم بذلك لا يضرون بالمسلمين وحدهم، بل يعتدون على البشريَّة كلَّها. وذلك لأنّ الدين الذي جاء به المرسلون –كافَّة– حفظه هذا الكتاب الذي يحمل في سوره وآياته خلاص البشرية، ومنهج إنقاذها من تدمير الضالِّين ومؤامرات المستكبرين، الذين يريدون بذلك ليطفئوا نور الله، ويحرموا البشريَّة من الحصول على "دليل خلاص" وسبيل إنقاذ

---

[١٩] نشرت جريدة "الأسبوع" القاهرية في عددها رقم"٣٧٣" بتاريخ ٢٠٠٤/٥/٣ تقريرًا مفصلًا عن هذا "المفبركان الباطل" ثم أعادت نشره في عددها الأسبوعي "٤٠٣" بتاريخ السادس من ديسمبر ٢٠٠٤. بقلم الأستاذ مصطفى بكري. كما أن مجموعة "المفبركان" نشرت "بالإنترنت" أجزاء أعطى لكل مجموعة تحريفات وأباطيل منها اسم "سورة". هدم الله عليه أسوارهم، ودمر عليهم ديارهم.

يكشف ظلم الظالمين. وعدوان الطغاة المتجبّرين، وأعداء الحياة لتخلو الساحة – بعد ذلك – لهم وللشياطين – لو نجحوا – خذلهم الله – للعبث بمقدَّرات البشريَّة، وإذلال شعوبها، وتدمير الحياة على الأرض، والقضاء على الإنسانيَّة. إنّهم لم يجدوا عدوًا ليتخذوه عدوًا غير القرآن الذي جعله الله كتابًا هاديًا منيرًا مشرقًا، معادلًا للكون وحركته مستوعبًا لسننه وقوانينه، مصدّقًا للأنبياء كافَّة، وحافظًا ومهيمنًا على كتبهم، ومجدّدًا لرسالاتهم، لم يجدوا غير هذا القرآن – نبيًّا لا يمكن قتله، ورسولًا مقيمًا تستحيل محاصرته وإبادته. لقد حرَّفوا التوراة من قبل: ﴿... **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ...**﴾(المائدة:١٣) ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ (**البقرة:٧٩**) – وجعلوا ما أنزل الله على موسى " قراطيس يخفونها" ويُبدون منها ما يناسب أهوائهم. وما أنزل الله إلا كتابًا واحدًا على موسى – عليه السلام – هو التوراة، لا كتبًا مختلفة متعددة متناقضة. وحرَّفوا الإنجيل، واختلفت طوائفهم فيه فصار لكل طائفة منهم إنجيلها الخاص، وما أنزل الله إلا إنجيلا واحدًا على قلب عيسى بن مريم – عليه السلام –حرّفوه فحرموا أنواره.

وكيف يهتدون وقد ضلوا؟ وإذ لم يجدوا لله بينهم كلمة صادقة ثابتة هداهم شيطانهم فعمدوا إلى القرآن المجيد لعلهم ينالون منه مثل ما نالوا من التوراة والإنجيل، فلِمَ لا يحاولون؟ خاصّة وأن بمقدورهم – الآن – أن يستخدموا آخر ما بلغته البشرية من وسائل تقنية لترويج باطلهم، ونشر تحريفاتهم وأضاليلهم؟!

القرآن حافظ رسالات الله كلّها:

لا شك أنَّهم قد اكتشفوا في القرآن الدين كله: حنيفيَّة إبراهيم وصحف وتوراة موسى وألواحه، وانجيل عيسى الصحيح الذي لم تمتد إليه يد التحريف لأنَّ القرآن قد حفظه، وضمَّه إليه مثل ما ضم صحف إبراهيم وموسى ودعائم وأركان رسالات الأنبياء والمرسلين كافّة. إنَّ القرآن قد أحبط محاولات أجدادهم وأسلافهم في تحريف التوراة والإنجيل حيث صدَّق القرآن عليها وهيمن، وأعاد كتب وصحف الأنبياء صادقة كما أنزلت على أولئك المرسلين من عهد نوح مرورًا برسالة إبراهيم وموسى وعيسى حتى مُحَمَّد عليهم – جميعًا – الصلاة والسلام. فلم يعد لهم أي سبيل إلى تحريفها وقد صدَّق القرآن عليها وهيمن.

لقد ظن هؤلاء الأغبياء أنَّهم بفبركة ما فبركوا إنَّما يحاربون الإسلام والمسلمين – وحدهم – وما دروا أنَّهم بذلك إنَّما يحاربون الله ورسله كافَّة، فهم يحاربون بهذا نوحًا وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وإسماعيل وموسى وعيسى وسائر النبيِّين ثم محمدًا – عليهم جميعًا – أفضل الصلاة والتسليم، إنَّهم بذلك يزيدون في تحريف أديانهم، وحجب حقائقها عن شعوب الأرض. ويغلقون الطريق أمام البشريَّة إلى الصحيح منها، فالقرآن هو المصدر الوحيد بين أيدي البشريَّة – القادر على إثبات حقائق الوجود التاريخيّ للأنبياء والرسل، وصحة الوجود التاريخيّ لأديانهم اليهوديَّة والنصرانيَّة – معًا – فالعلوم التي ابتكروها، وفنون النقد التي مارسوها جعلت اليهود والنصارى- خاصَّة علماء الأديان وتاريخها – يفقدون ثقتهم بالوجود التاريخيّ لتلك الأديان ورسلها وأنبيائها، ويتشككون فيها- كلها- وجعلت من تلك الأديان وكتبها ورسلها ميادين لتجريب سبل الهدم والنقد الهادم المدمر، لا النقد البنّاء، وبما اقترفوا جعلوا منها مجرد أساطير استقرت في ذاكرة وخيال الشعوب تجب المحافظة عليها باعتبارها جزءًا من " المكوِّن الثقافيّ الشعبيّ أو المخيال الثقافي " فصاروا يعيدون صياغتها وبنائها بحسب الظروف ومتطلَّباتها لتلبية الحاجات النفسيَّة لتلك الشعوب، فهي – عندهم – بمثابة

الخمور والمسكرات التي قد يطلقون عليها "المشروبات الروحيّة" يوظِّفونها بالدرجات التي يريدونها، ويقرّرونها لتشكِّل "أفيونًا للشعوب" يروج لها بعض الفاشلين من ساستهم ولاهوتيّيتهم.

حفظ الله القرآن وعصمته له:

أمَّا "القرآن" فشأنه مختلف، فهو كتاب الله – تعالى – الذي لم يدع أمر حفظه للبشر – مثل الكتب السابقة التي أوكل الرسل الذين أنزلت عليهم حفظها إلى الحواريّين والربَّانيّين والأحبار فحرَّفوها، وضيعوها:﴿... **بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء...**﴾ (**المائدة:٤٤**) ربما كانت حكمة الله (تعالى) في ذلك إظهار خصوصيَّتها – أعني اختصاصها بشعوب أولئك الأنبياء، وتاريخانيَّتها – أعني اختصاصها بمرحلة تاريخيَّة محدّدة، فيما هو غير دائم ومستمر من التشريعات والمعالجات، الخاصَّة بتلك الشعوب في تلك المراحل من عمر البشريَّة.

إنَّ القرآن المجيد قد حفظه الله بنفسه، وتكفَّل بدوامه وبقائه واستمراره إلى يوم الدين: يحمل خطابًا عالميًّا، وشريعة تخفيف ورحمة عالميَّة شاملة، وأوكل إليه الحاكميَّة، وأودع فيه التصديق والهيمنة على ما سبق، وما يأتي به الناس إلى يوم الدين؛ ونسخ به كل ما أدخله المرجفون والمحرِّفون على رسالات الأنبياء وحفظه بنفسه، وحفظ به خلاصات وثوابت رسالات المرسلين، فقد حفظه من داخله بنظمه وبيانه وأسلوبه وإعجازه. وتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو ينالوا منه بتحريف أو تغيير. وحفظه من خارجه بتهيئة الملايين عبر العصور لحفظه في الصدور وتدوينه في السطور، وتداوله صحيحًا نقيًّا معصومًا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فتناقلته الملايين جيلًا بعد جيل، محفوظًا في الصدور، مدونًا في السطور فلم يضع منه حرف واحد على مر الدهور.

وقد تعرض القرآن الكريم لمحاولات التحريف فلم تفلح، ولمحاولات الدس بإضافة كلمات أو حذف كلمات يتحول بمقتضاها الإيجاب إلى نفي والنفي إلى إيجاب فلم ينطل ذلك على عوام المسلمين فضلًا عن قرّائهم وعلمائهم.

المحاولات الفاشلة للنيل من القرآن:

وكذلك تعرض لعمليّات تحريف متقن مضلّل في الطباعة ليبدو التحريف غير مقصود، وذلك بإعجام المهمل، أو إهمال المعجم، فلم يفلح ذلك بالمرور، أو الانطلاء على عامة المسلمين فضلًا عن قرّائهم وعلمائهم.

أمَّا ترجمات معانيه للغات الأخرى فقد كانت ميدانًا واسعًا لتحريف معاني القرآن وتزييفها بنوايا سيئة، أو للعجز عن السمو إلى مستوى لسانه وبيانه.

وأما محاولات تقليد ظواهر لسانه، ومحاكاة تعبيراته فلم تتوقف عبر العصور، ولكنَّها شكلت أسباب سخرية واحتقار لأصحاب تلك المحاولات أظهرت طفولتهم العقليَّة، وهزيمتهم النفسيّة، وسفاهة أحلامهم، وتفاهة محاولاتهم. وما قام به هؤلاء التوافه من تأليف "مفبركَانهم الباطل" لا يعدو أن يكون محاولة هزيلة تضاف إلى ملايين المحاولات السقيمة الفاشلة التي قام بها إخوان الشياطين عبر التاريخ، فما زادت المؤمنين بالقرآن إلا إيمانًا مع إيمانهم، وما زادت إخوان الشياطين إلا عمى وضلالًا وأحقادًا. وبقي القرآن شامخًا يتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سوره فلا يأتون بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

الفرضيّات الخاطئة:

لقد بنى مؤلفو "المفبركان الباطل" ومن ورائهم من شياطين الإنس والجن "مفبركَانهم" على فرضيّة خاطئة متهافتة، خلاصتها: أنّ القرآن – في نظرهم – لا يعدو إلا أن يكون أسماء سور، وفواصل تنتهي بها الآيات، وبعد ذلك يستطيعون أن يدسُّوا بين البدايات

والفواصل ما يشاؤون من مضامين مقتبسة من الأسفار المنسوبة إلى موسى، والكتب المنسوبة إلى عيسى أو من مفترياتهم. فاستبدلوا أسماء السور بأسماء باطلة — ما أنزل الله بها من سلطان — زائفة خادعة اختاروها، وظنُّوا أنّهم بمجرّد أن يضيفوا كلمة "سورة" ستنجح الفبركة وسوف ينخدع القراء المسلمون بما افتروا وفبركوا وأنَّ " الجِرسَ" الذي في الفاصلة سوف يجعل الفبركة أكثر إتقانًا، ثم هم بعد ذلك في المضامين أحرار.

فجاؤوا بمزيج عجيب لا تعرفه اليهوديَّة ولا النصرانيَّة، ولا الحنيفيَّة الإبراهيميَّة ولا الإسلام، ولا أي دين آخر إلا دين الشيطان الرجيم: ﴿**كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ (**الحج: ٤**). ولو فرض أنَّ أحدًا تأثَّر بهذا " المفبركان" فإنّه لن يجد لنفسه موقعًا في أيّة مجموعة دينيّة من هذه المجموعات لأنه لن يكون يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولا حنيفًا مسلمًا ولا شيئًا آخر. إلا شيطانًا مريدًا أو واحدًا من أتباع الشيطان. لقد ذكرني شياطين "المفبركان" بواقعة حدثت لي مع إحدى حفيداتي حين كانت طفلة في السادسة من عمرها. وكانت أمها تقرؤها القرآن الكريم، فجعلتها تحفظ بعض السور ومنها " سورة النبأ" وبعد أن اطمأنت إلى حفظها السورة جاءت فرحة تدعوني لسماع السورة منها بلهجتها الطفوليَّة المحبَّبة فشرعت حفيدتي — ذات السنوات الست - تقرأ وأنا استمع إليها فيما كنت ارتدي ملابسي:"بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ عم يتساءلون(١) فارتج عليها، فبقيت تردّد "عم يتساءلون" ولم يفتح عليها، وتعمدت أن انتظر حتى تتذكر بنفسها، وإذا بها تقول: "عم يتساءلون" ( ) جدي يلبس البنطلون ( ) فانفجرت ضاحكًا من قولها، وعجبت لتأثّر هذه الطفلة "بجِرسِ الآيات" الذي جعلها تؤلّف على الفور من واقع تشاهده عبارة تحمل ما يشبه الفواصل في السورة: "يتساءلون ( ) مختلفون ( ) سيعلمون ( ) فجاءت بتلك الجملة الغريبة المنتهية "بالواو والنون". إنّ صنيع هذه الطفلة البريئة كان أكثر اتقانًا من صنيع رجال "الكهنوت" الذين فبركوا "المفبركان الباطل".

المفبركان الباطل لا ينتمي إلى أي دين:

إنّ من يُقدَّر عليه تبنيّ ذلك "المفبركان الباطل" لن يبلغ مرتبة المشركين لو كان للشرك مرتبة. ولا وعي وخبرة قادة الجاهليّين المشركين الذين أدركوا رغم كفرهم وشركهم وجاهليّتهم أن هذا القرآن ﴿.. **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى** ..﴾ **(يوسف:١١١)** وما كان صنع بشر فإنّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّ أعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر. فتوقفوا عن معارضته، وفضلوا على ذلك الحروب. وبذلك احترموا أنفسهم وعقول أشياعهم فلجئوا إلى التشويش عليه، والقول بأنّه: ﴿.. **إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ**﴾ **(المدثر:٢٤)**، ﴿.. **سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**﴾ **(القمر:٢)**، ﴿.. **إِفْكٌ افْتَرَاهُ** ..﴾ **(الفرقان:٤)**، ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا** ..﴾ **(الفرقان:٥)**، ليكسبوا الحرب النفسيّة والثقافيّة. فهذه الأقوال منهم – على تهافتها – وعدم إيمانهم بها، لكنّها أقوال قد ينخدع بها الجاهلون الذين يلاحظون آثار القرآن في سامعيه فيتساءلون عن سر ذلك، فيقول لهم هؤلاء: ألا ترون "أنّه يفرّق بين الأب وأبنائه، والأزواج وأزواجهم"؟ وذلك شأن السحر المتعارف عليه عندهم!

بعض محاولات أسلاف كذابي العصر:

ولذلك لم يعارض القرآن عربيٌّ يحترم نفسه، ويحرص على ألا يتهم بالجهل بلغة قومه. والذين حاولوا لأمراض نفسيَّة ألمت بهم، أو جنون عظمة تملكهم، أو لغيرة وحسد هيمنا عليهم جاؤوا بما يضحك الثكلى. فحين نزلت – على سبيل المثال – سورة "الفجر" على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) وبلغت آياتها المعجزة مسيلمة الكذاب: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**﴾...السورة. قال الكذاب: "لقد أنزل علي آنفا: "والحمام واليمام وقصور الشام ..." وذلك لتوهّم الكذّاب أنّ إعجاز القرآن منحصر في أسلوبه فإذا جاء بعبارات تُرصُّ بأسلوب معيَّن أو تُسجَع سجعاً يشبه – في خياله المريض – أسلوب القرآن كما تفهمه قريحته السقيمة فذلك كافٍ في إظهار المعارضة؛ ولذلك انطلق في بعض

معارضاته التخريفيَّة التي كان يدرك أنّها لن تتجاوز ولن تعدو أن تكون مجرَّد لغو في هذا القرآن، ومحاولة تشويش على قارئيه وسامعيه، فادَّعى – أيضًا – أنّه قد أنزل عليه: "...لقد من الله على الحبلى⊙ أخرج منها نسمة تسعى⊙ من بين صفاق وحَشى⊙" وأوحى إليه شيطانه يومًا بقوله: "...الفيل ما الفيل⊙ وما أدراك ما الفيل⊙ له ذنب ونبيل⊙ وخرطوم طويل⊙" كما جادت قريحته يومًا بقوله: "يا ضفدع بنت ضفدعين⊙ نقيّ ما تنقين⊙ نصفك في الماء ونصفك في الطين⊙". كما توهّم النضر بن الحارث أن سرَّ عظمة القرآن وتأثر الناس به: يكمن في قصصه التي تناولت مواقف تلك القرون من أنبيائهم ورسلهم، فراح بتحريض من مشركي قريش يتتبّع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ووفودها إلى البيت الحرام في المواسم ليجلس إلى تلك الوفود التي كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) يجلس إليها، فيقص عليهم ما يعرف من أخبار فارس والروم، ويقول لهم: "ماذا ترون في قصص محمَّد عليكم وقصصي؟ إنّ ما جاء به محمَّد لا يعدو أن يكون قصصًا وأساطير كالتي أقولها لكم !!بل إنّ ما أقصُّه عليكم أكثر متعة، وأقرب إلى زمانكم ...".

هؤلاء البؤساء – جميعًا – خدعوا أنفسهم، وأوهموها بأنَّ مصدر تفوُّق القرآن وتحدِّيه وإعجازه – هو وجه واحد، ذلك الذي حاولوا واهمين معارضته فيه ألا وهو السجع والقصص. وحتى هذه لم يدركوا حقائقها، ولم يرقوا لمستوى فهمها. ولو كان الأمر –كما توهموا– لما احتاج العرب إلى خوض المعارك والتضحية بالأموال والأبطال من صناديدهم في حروبهم ضد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلّم) والقرآن؛ إذ كان يكفيهم أن يأتوا بسورة من مثله، وينتصروا عليه، ويثبتوا أنَّه قول بشر مثلهم.

تحدي القرآن:

لقد تحدّى القرآن الخلق –كلّهم - أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثل سوره، بل نزل إلى حد تحديهم أن يأتوا بسورة واحدة مماثلة لسوره ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى**

أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء:٨٨)، **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** (هود:١٣)، **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:٢٣)**. وتواتر التحدي، وتناقلته الأجيال، وتواتر عجز الذين تحدَّاهم. ولم يستطع الخلق أن يقيموا دليلًا واحدًا على عدم عجزهم، وما استطاعوا مع تعدُّد المحاولات وتكرارها أن يعارضوه، فعمدوا إلى الحروب والقتال، وبذل المهج والأرواح ونفيس المال، لإسكات رسول الله، ومنع نور القرآن من الظهور فهل أفلحوا؟!

يقول القاضي عياض في كتابه الشفاء: "فلم يزل يقرّعهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) أشد التقريع، ويوبِّخهم غاية التوبيخ، ويسفِّه أحلامهم، ويحط أعلامهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء، وقولهم: "سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين". وقد قال تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُوا**﴾ **(البقرة:٢٤)** فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة الكذاب كشف عواره لجميعهم –كما ألمحنا – ولّما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠)** قال: "والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، وما هو بكلام بشر".- كما مر - وذكر أبو عبيدة أنّ أعرابيًّا سمع رجلًا يقرأ: **﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر:٩٤)**فسجد، فقيل له في ذلك؟ فقال: "سجدت لفصاحته"، وما أفصح وأبلغ هذه الكلمات الثلاث؛ إنَّها أمر بصياغة الخطاب الناجع المؤثّر الخالي من سائر عيوب الخطاب بحيث يتجاوز الأسماع إلى القلوب والبصائر والأفئدة. إنّ "اشكاليَّة الخطاب" باتت – اليوم

– إشكاليَّة عالميَّة. وهذه الكلمات الثلاثة تحمل للمتدبِّرين المعالجة السليمة لهذه الإشكاليَّة في سائر مستوياتها، وأركانها من مخاطَب ومخاطِب ورسالة أو مضمون خطاب، وكيفيَّة تقديم ذلك الخطاب. وسمع آخر قارئًا يقرأ: ﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ **(يوسف: ٨٠)** فقال: "اشهد أن لا مخلوق يقدر على مثل هذا الكلام" ولو استعرضنا ما ورد في تأثير القرآن المجيد في سامعيه لحررنا في ذلك آلاف الصفحات!!

إنَّ نظم القرآن الفريد هو الذي جعله كتابًا ميسَّرًا للذكر –كلِّه– فهو يقرأ بيسر وسهولة، إذ هو في مفرداته يستعمل أقرب الكلمات، وأبلغها في الدلالة على المقصود، وأفصحها، فلا تجد في كلماته كلمة واحدة مصابة "بتنافر الحروف" لتباعد مخارجها، أو لثقل اجتماعها في كلمة. بحيث تثقل على اللسان ويصعب نطقها، ولن تجد في جمله وآياته كلمات متنافرة لأيّ سبب من الأسباب. ولن تجد فيه لفظًا مستغلَقًا، ولا لفظًا مستكرَها، أو نابيًا أو فاحشًا أو بذيئًا. يقول الإمام الرازي: "...إنّ المحاسن اللّفظيَّة غير مهجورة في الكلام الحِكْميّ، والكلام له جسم وهو اللَّفظ، وله روح وهو المعنى. وكما أنّ الإنسان الذي نوَّر روحه بالمعرفة ينبغي أن ينوَّر جسمه بالنظافة كذلك الكلام، ورب كلمة حكيمة لا تؤثِّر في النفوس لركاكة لفظها"[٢٠]. ولدقة نظم القرآن سهل حفظه، وتيسُّر ترتيله، واستطاع الناس تلاوته وتدبُّره وفهمه وتعقُّله وتذكره والتفكّر فيه بيسر وسهولة، وبقطع النظر عن مستوياتهم المعرفيَّة وطاقاتهم الذهنيّة. فإنّ مما اتفقت عليه آراء الذين تناولوا إعجاز القرآن، أو خصائصه ومزاياه "تأثير القرآن في نفوس قارئيه وسامعيه" وقدرتهم على الميز بينه وبين سواه فمن طبيعته النزول على القلب، وتحريك الوجدان والتأثير في النفوس. فأيّ تغيير في بنائه يضع حاجزًا بين

[٢٠] التحرير (١/١١٢) ونهاية الإيجاز للإمام الرازي، مصدر سابق.

النص المختلق أو المغيَّر والفطرة والقلب والنفس والوجدان. وهذا مالا يدركه المفبركون، أو يغيب عنهم، فيقعون في حبائل الشيطان، ويتوهمون القدرة على المعارضة والفبركة. .

ولدقة نظم القرآن استحال على الباطل أن يأتيه من بين يديه ولا من خلفه. واستحال على الخلق أن يأتوا بمثل سورة من سوره.

عصمة القرآن من أي نوع من التحريف:

ولدقَّة نظمه اتَّسم "بالوحدة البنائيَّة"[٢١] في بنائه –كلّه – مع تعدُّد محاوره، وتفنُّنه في تناول مختلف الأغراض التي تحتاج – لو تناولها غيره – إلى آلاف المجلدات ولن تستوعب تلك الأغراض.

فهو تارة يعتمد الأسلوب القصصيّ. وتارة يوظِّف الوقائع التاريخيَّة، وتارة يوجز دون أيّ تقصير في تناول المعنى المراد، وأخرى يفصّل دون إطناب، وأحيانًا يطلق الجمل، وفي أحيانٍ أخرى يقيّدها، ويوظِّف الإجمال ليفتح العقول ويحملها على التفكُّر والتدبُّر. ويستعمل البيان من غير أن يشعر القارئ بأن هناك إجمالًا أو إطلاقًا، أو إيجازًا إلَّا إذا أنعم النظر، وأجال الفكر، وقام بالتلاوة "حق التلاوة".

وأحيانًا يعتمد ضرب الأمثال وقد أبدع في تركيبها، وحمل العقول على السعي للوصول إلى مراميها، وما رمزت إليه من غير خلط بينها وبين القصص كما هو الحال في الكتب الدينيَّة الأخرى.

إرهاصات سبقت تأليف "المفبركان الباطل":

٢١ وقد أفردنا "للوحدة البنائيَّة" دراسة مستقلة.

منذ عدة عقود بدأت تظهر بعض أمور كأنّها مربَّعات أحرف متقاطعة من الصعب تحويلها إلى كلمات ذات معنى، لعدم وجود ما يدل عليها من أسئلة وغيرها. من تلك الأمور: الدعوة إلى توظيف الدين في معالجة مشكلات معاصرة تحتاج إلى تجنيد طاقات الشعوب، ووضعها على صعيد واحد، وتحقيق التعاون بينها. وهذا أمر جيد لا إشكال فيه، ولا اعتراض على الدعوة إليه من حيث المبدأ. ولكن ......

توظيف الدين أم اتخاذه مرجعيَّة؟

ولكنّ الفرق كبير بين "توظيف الدين" وبين "الرجوع إليه" أو اعتباره مرجعيَّة يجب الرجوع إليها لمعالجة تلك المشاكل فتوظيفه يعني استدعاءه لأداء وظيفة أو دور يظن أصحاب "القرار السياسي" أنَّ الدين يستطيع أن يؤديه، فيستدعى بقدر ما يؤدي ذلك الدور، ثم يعاد إلى الأرفف العالية ليستقر عليها حتى حين، وذلك عندما تظهر حاجة أخرى. وهذا النوع من الرجوع لا يدل على رجوع حقيقيّ إلى الدين، أو عودة صادقة أو كاذبة إليه، ولا يصنَّف في إطار توبة، أو رجوع إلى الحق أو صحوة دينيَّة، أو ما شاكل ذلك. فهو لا يعدو أن يكون إعطاء "الدين" وظيفة مؤقتة تنتهي بانقضاء الحاجة إليها. ولذلك اشترط الإسلام النيَّة لصحة العمل، وبيَّن ضرورة ارتباط الرجوع إلى الدين، أو التديُّن بالإخلاص: ﴿**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ **(الأعراف:٢٩)** أي: أنَّه ليست هناك شائبة تشوب تديُّننا بديننا، فتديُّننا بريءٌ من جميع الشوائب، صافٍ من كل ما يكدره من شرك أو خلط واختلاط. فالمقصود به وجه الله (تعالى) وأيّة فائدة قد تتحقق بعد ذلك، فهي ليست مقصودة وإن حدثت فهي فضل وفائدة لا غاية، فالمقصود الأساس وجه الله – وحده – وللإخلاص حقيقة وماهيَّة وشروط وأركان لابد من ملاحظتها للتمييز بين توظيف الدين، وبين التديُّن الخالص الصافي الذي لا يراد به إلا وجه الله، ولو أنّ هذا المقياس أو الميزان كان شائعًا متداولًا بين المؤمنين لما خدعوا بنوبات "تديُّن الظالمين"، ولأدركوا الفرق بين من يوظِّف

الدين لتحقيق مآربه الدنيويَّة ومن يوظِّف نفسه لخدمة الدين ابتغاء مرضاة الله. وإخلاصًا لوجهه الكريم.

خطوات تنفيذيَّة:

ويبدو أنَّ هناك من أراد أن يجعل الرغبة حقيقة وواقعًا، فشكلت لجنة تحضيريَّة، ووجهت الدعوة إلى رجال كثير من الأديان السائدة، ولم تقتصر على ما يعرف "بالأديان الإبراهيميَّة" كما هو الحال في الحوارات التي كثيرًا ما تجرى في الولايات المتحدة. وعندي على هذه التسمية "الأديان الإبراهيميَّة" ملاحظة، فهي وإن تبنَّاها وردّدها كثير من المسلمين فإنّها تسمية غير دقيقة، فهي تشير إلى البعد القومي في النظر إلى الدين فارتباط "اليهود والنصارى" إن صح بسيدنا إبراهيم – عليه السلام – ليس ارتباطًا دينيًّا. بل هو ارتباط قوميّ – إن سلم – وذلك لبنوة إسحاق ويعقوب لإبراهيم وكذلك إسماعيل، وتنزُّل آل عمران من ذريته عليه السلام، والديانتان خاصّتان في بني إسرائيل أو سلالة إسرائيل فهما "خبز الأولاد" كما نقل عن السيد المسيح "لا يعطى للكلاب". وقوله: "إنّما جئت لإنقاذ الخراف الضالَّة من بني إسرائيل"، وما أوردته أسفار موسى والأناجيل كلّها ذلك يؤكد "انحصار رسالة موسى وعيسى – عليهما السلام – في بني إسرائيل، فموسى – عليه السلام – جاء لتحرير شعب إسرائيل من العبوديَّة لفرعون. وعيسى جاء لتحريرهم من الحرفيَّة والماديَّة التي شاعت فيهم، وإعادتهم إلى روح الشريعة الموسويَّة ومقاصدها. والتعميم الذي حدث للمسيحيّة – بعد ذلك – إنما جاء بعد اعتناق قسطنطين للنصرانيَّة، وتوظيفها لبناء مجد روما والإمبراطوريَّة الرومانية.

لذلك فإنّه لا صلة بين الديانة اليهوديَّة ولا الديانة النصرانيّة وبين إبراهيم إلاّ الصلة القوميَّة فقط لا غير. أما إبراهيم نفسه فإنّه كان ﴿... **حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ ومثله موسى وهارون وعيسى وداود وسليمان ويحيى وغيرهم ممن قص الله في القرآن قصصهم ومن لم يقصص علينا قصصهم. ومن هنا فإنّ إطلاق كلمة "الأديان الإبراهيمية" على الأديان الثلاثة، ونسبة اليهودية والنصرانيّة إليه إطلاق غير صحيح، بل إن

يعقوب نفسه: إسرائيل لم يكن يهوديًا، إذ إن اليهوديّة نشأت ببدء نزول الوحي على سيدنا موسى. كما بدأت النصرانيَّة بنزول الوحي على سيدنا عيسى - عليهما السلام – ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا**...﴾.

إنَّ الأديان التي دعيت للمشاركة في ذلك اللقاء شملت الديانات الوثنيَّة الوضعيَّة في الصين والهند واليابان وبقية بلدان "جنوب شرق آسيا" وكثير من المناطق الأفريقيّة، والمجاهل والغابات. وقد شارك بعض من يمثِّل بعضًا منها في ذلك اللقاء.

أمَّا: اليهوديَّة" فقد دُعي وشارك من رجالها عدد جيِّد من كبار أساتذة الدراسات اليهوديَّة، ومن يحملون لقب "رباى" أو حاخام من العاملين في المؤسّسات الدينيّة اليهوديّة لطائفتي: "اليهود الأرثوذكس"، وهم الذين يرون في التقاليد والطقوس المتوارثة لشعبهم حقيقة اليهوديّة، والدرع الذي صان وحدة الشعب اليهوديّ ودياناته عبر التاريخ.

و "طائفة اليهود" الذين يسمون أنفسهم "بالإصلاحيين" وتسميهم الطوائف اليهوديّة الأخرى "بالعلمانيّين" هم الذين ينادون بقبول ثقافة العصر وقبول ما تأتي به، والاستعداد للتنازل عن كثير من المواريث الدينيَّة التي قد تضع بين اليهود وبين من يعيشون بينهم من الشعوب حواجز قد تضر بالوجود اليهوديّ.

ثم النصرانيَّة في أمريكا وأروبا وكثير من بقاع الأرض. وإن اختلفت كنائسها، وتضاربت معتقداتها؛ ولكنَّها – عندما تواجه الأديان الأخرى- تلاحظ مشتركاتها حتى تبدو كأنَّها ديانة واحدة.

ثم يأتي الإسلام فهو ثالث دين في العالم من الناحية العدديَّة، تليه اليهوديَّة من حيث العدد، لا من حيث النفوذ.

وهناك ديانات أخرى قد دعيت وشاركت، وهي خليط من بقايا ديانات موروثة، وبعض الديانات الوضعيَّة.

منظمّة الأديان المتحدة:

ويبدو أنَّ هناك مؤسَّسات دينيّة – من ﴿أولئك الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ كانت تسعى لتحقيق أهداف معيّنة لدى القائمين عليها، فقد طرحت فكرة إقامة منظّمة "للأديان المتحدة" ترتبط بمنظمة الأمم المتحدة. وحين سمعت الخبر للمرة الأولى لم أدرك أن الأمر جد؛ فالفكرة لا تبدو ممكنة أو قابلة للتنفيذ، في ظل الأوضاع القائمة في عالمنا – اليوم – وهي مثيرة للعجب والتساؤل: يا ترى كيف ستدار هذه المنظَّمة؟ وكيف ستكون قضيَّة التمثيل فيها؟ وما هي الأهداف التي ستتبنّاها؟ وما هي السياسات التي ستتَّبعها، وما هي الآليّات التي ستوظِّفها وتستخدمها... هناك عشرات الأسئلة تواردت على ذهني. ثم تناسيت الأمر، أو أنسيته وحملته على أنّها قد تكون فكرة أو خاطرة أطلقها بعض الحالمين. أو المجانين أو المهلوسين!! في بادئ الأمر.

ثم تلقيت دعوة من "لجنة تحضيريَّة" أشارت في دعوتها إلى أنّها ترغب في جمع نخبة من "رجال دين" يمثِّلون مختلف الأديان الشائعة بين البشر اليوم للتحاور حول أفضل السبل التي يمكن لرجال الدين أن يساعدوا بها في احتواء ومعالجة مشكلات العالم المعاصر!!. وكان مكان عقد الاجتماع المقرّر أحد أهم " مراكز الدراسات النصرانيَّة"، يقع ذلك المركز – الدير– قريبًا من نيويورك، وعلى مرتفع من المرتفعات الجميلة القريبة منها. والمركز يقع في مبنى قديم لكنَّه فخم جدًا وواسع جدًا، ففيه جميع المرافق من مكتبة ومطاعم ومبان مخصَّصة لإقامة الرهبان، وأفواج التنصير التي تنطلق منه إلى كل أنحاء المعمورة. وفيه اكتفاء ذاتيٌّ يغني طلابه وأساتذته ورهبانه، وأفواج التنصير التي تنطلق منه وتعود إليه. عن الاتصال بالعالم الخارجيّ إلا عندما يريدون ذلك.

وقد أسكنوا المشاركين القادمين من خارج المدينة في غرف معدة لأفواج التنصير. حيث إنّ تلك الأفواج تعود إلى هذا "المركز Saminary" بعد أن تقضي فترة محدّدة في المواقع التي أرسلت إليهاُ، ثم تعود بتقاريرها ودراساتها لتزود بها المركز، وتتلقى في الوقت نفسه من أساتذة ورهبان المركز التوجيهات الجديدة، والمحاضرات التي تساعدهم في تجديد معلوماتهم، وإنماء أساليب عملهم، ليعودوا لممارسة مهامِّهم التنصيريَّة من جديد. ويقضي الفوج، العائد شهرًا كاملًا في عمل دؤوب لتبادل المعلومات، والتزوُّد بالخبرات الجديدة، ثم يعود ليأتي فوج آخر وهكذا، فهو خليَّة نحل لا تتوقف عن العمل ولا تفتر. و

كم تحسَّرت وأنا أشاهد ذلك –كلّه – على مؤسَّسات الدعوة ومنظّمات الدعاة في بعض بلادنا المسلمة التي تمارس عملها – إن أتيح لها أن تمارس شيئًا – بعشوائيَّة وسذاجة لا تنسجم وأبسط القواعد العلميَّة في هذا المجال – الذي أصبح مجالًا من أخطر مجالات المعرفة، له فنونه وعلومه، والعلوم والفنون التي ترفده بكل جديد لتجعل من الداعية عنصرًا فاعلًا ومؤثّرًا وناجحًا في عمله. فيخضع لتدريبات شاقة، واختبارات دقيقة ليس هذا مجال تفصيلها.

ومع كل ما لدي من مخاوف وتحفظات قررت المشاركة، وحين بدأ لقاء "القيادات الدينيَّة" المدعوة أعلن أنّ عدد الأديان الممثلة في هذا اللقاء أربعون دينًا لكل منها أتباع في الولايات المتحدة واستغربت ذلك، ولكن سرعان مازال الاستغراب حين وزعت أوراق تقدم بعض التفاصيل: فقد عدوا "البهائيّين" ديانة مستقلة و "القاديانيّين" كذلك ومثلها بعض الأديان الهنديَّة التي قد لا يتجاوز عدد أتباعها سكان قرية هنديَّة متوسطة. وألقيت كلمات.

صلوات مشتركة:

ثم أعلنت لجنة المؤتمر عن أنَّ الجلسات ستتخللها صلوات، فممثّل كل دين عليه أن يقدم "الصلاة" الأساسيَّة المفروضة في دينه، ويشاركه الآخرون – بخشوع – في أدائها أو بالصمت والتأمّل، فذلك سوف يساعد على تحقيق الاحترام المتبادل !! وما علمت أنَّ الإصابة بالإسهال نعمة بقدر ما علمت ذلك في تلك الأيام، فقد كنت أجد في الخروج من القاعة إلى الحّمامات بسبب ذلك وسيلة حماية ووقاية من الاستماع إلى "صلوات المكاء والتصدية" فضلًا عن المشاركة فيها والعياذ بالله. وأعلنت – المسئولين – أنَّني مريض ربما من الطعام، أو الإصابة بالبرد، لئلا يفسَّر خروجي المتكرّر بأي تفسير آخر. ولما جاء دوري لأداء الصلاة المفروضة علينا - نحن المسلمين أمام هذا الجمع – أبديت اعتراضًا على أنهم يطلبون مني الصلاة في غير وقتها المحدّد عندنا، وهذا أمر غير مقبول، ولكنّني على استعداد إن شاؤوا أن أصلي الصبح في أول وقتها غدًا على أن تعد قاعة مناسبة، ويحضر المؤتمرون جميعًا ليروا ويسمعوا تلاوتي وصلاتي وسوف أشرح لهم ذلك وأترجم لهم ما أتلوه من القرآن إن شاء الله. فقال أكثرهم: إنّهم سوف يكونون نيامًا في هذا الوقت، ولن يسهل عليهم الحضور. وهمهم بعضهم بأنّه قد شاهد من قبل صلوات إسلاميَّة، فأخبرتهم بأنّني سأستبدل إذن ذلك واستخدم الوقت المخصّص لي الآن بقراءة آيات من القرآن الكريم مع ترجمتها وقد كان.

لكنّ ما خرجت به من ذلك اللقاء أن الأمر جدٌّ، وأنّ القوة الموجَّهة لعالمنا المعاصر تعمل على توظيف الدين لخدمة أغراضها السياسيَّة بكل ما تملك من وسائل. وأنّ المستهدف الأول من كل تلك الجهود المحمومة، والضحيَّة الأولى لها سيكون القرآن ثم الإسلام والمسلمين؟!

درس من الأمم المتحدة:

إنَّ "الأمم المتحدة" منذ إنشائها شكلت سلاحًا سياسيًّا هامًّا بأيدي الدول الكبرى التي تهيمن على مجلس الأمن وعلى كثير من المنظّمات الفرعيَّة والأساسيَّة. والبلدان المسلمة يرفع بوجهها عل الدوام سلاح "الشرعيَّة الدوليَّة" وهو مفهوم وهميٌّ خاطئ يعبّر عن وهم كبير لم يعد يخفى على أحد. ومثله سلاح "الإجماع الدولي" والخروج على الإجماع الأمميّ ووو... إلخ.

واستولى علي قلق وخوف شديدان: إنّ هذه المنظمة "منظمة الأديان المتحدة" لو قامت فسوف تستخدم هذه الأسلحة أو مثيلًا لها في مواجهة الإسلام عقيدة وشريعة ونظم حياة، فما أسهل وأيسر أن تصدر قرارًا ينال إجماع ممثلي تلك الأديان!! بمنع الجهاد مثلًا نظريًا وعمليًّا أو توصية بتحريمه دوليًا، والمناداة بوجوب إتلاف وإعدام سائر الكتب والدراسات، بل والآيات والأحاديث النبويَّة المتعلقة به. وبذلك يصبح مجرد الحديث عن الجهاد أو تدريسه جرمًا ممنوعًا –كما هو الحال اليوم – فضلًا عن ممارسة أيّ نوع من أنواعه إلاّ جهاد النفس؛ لأن مجرد الإبقاء على المفهوم يعدُّ خروجًا " عن "الشرعيَّة الدينيَّة الدوليَّة" و"الإجماع الدينيّ الأممي" و.... و....إلخ. وقد يطالبون بحذف جميع الآيات التي فيها الوعيد بالنار يوم القيامة للمشركين والكافرين والملحدين، وقد تطالبنا برفع الآية (٢٩) من سورة التوبة ﴿**قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ (**التوبة:٢٩**) ، وسائر آيات القتال من القرآن الكريم، بحجة أنَّ ذلك يمثل دعوة للعنف .. إلخ.

وقل مثل ذلك في الزكاة، وسائر أركان الدين والشريعة، والعقيدة. وشعرت أن هناك محاولة لمحاصرة القرآن المجيد، والسنة النبوية، ومحاولة إيجاد حاجز بينهما وبين المسلمين اليوم،

وكذلك غير المسلمين. وآنذاك لا يعود القرآن المجيد مصدرًا للعقيدة والشريعة، ولا السنّة النبويَّة المشرّفة مصدرًا مبيّنًا لأنّ التشريع الدينيّ العالميّ ستكون مرجعيَّته تلك الهيئة الدوليَّة، فهي التي تقرر ما هو من الدين، وما هو خارج عنه، وبمقتضى ميثاقها سوف يتم تصنيف الأديان ومعتنقيها. وسائر ما يتعلق بهم وبها. وصدمت صدمة كادت تذهب بعقلي، وحدّثت بعض قادة المؤسّسات الدينيَّة في أمريكا وفي عالمنا الإسلامي في هذا الأمر وكيف سيكون موقفهم لو وجدوا أنفسهم في مواجهة أمر كهذا؟ ومن المؤسف أنَّ معظمهم كان يبدي عدم اكتراث، أو يستبعد حدوث ذلك.

وبعضهم كان يردّد: إنّ الإسلام أقوى من كل تلك المحاولات، وإنّها لن تنال منه .. ولا شك أنَّ الإسلام – في ذاته – لن يزول –بإذن الله، ولن تنطفئ أنواره. وأنَّ القرآن محفوظ بحفظ الله (تعالى) فلن ينالوا منه نيلًا، لكن سنة الله (تعالى) أن يقذف بالحق على الباطل فيزهقه. ومن سننه وقوانينه التي لا تتبدل "سنّة التدافع": ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (**الحج:٤٠**)

وهناك "سنّة الاستبدال" ﴿**... وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**﴾ (**محمد:٣٨**) فالمسلمون إن لم يحملوا الحق الذي كلّفوا بحمله، وإعلاء شأنه، ولم ينضموا إلى صفوف حملته الذين يقذف الله بهم أهل الباطل فيزهقه. فقد يعلو الباطل ولو إلى حين. وقد تقع عليهم "سنة الاستبدال" لأنّهم تخلوا عن مهمتهم، فلابد من استبدالهم.

هذا الذي استبعده الكثيرون من قيادات المسلمين قبل سنوات قلائل صرنا نشاهده اليوم، ونلمس آثاره. منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر وسائر بلاد المسلمين تتعرّض لعمليّة إبادة ثقافيَّة، وتدمير هُويَّة شاملين.

وبعد الحادي عشر من سبتمبر قررت "المنظمة الاقتصادية العالميّة" في ("دافوس") المعروفة. أن يكون أول اجتماع لها في مدينة نيويورك تكريمًا للمدينة الجريحة وتعزية لها.

دعيت – أيضًا – إلى ذلك اللقاء الذي عقدته "المؤسسة" في نيويورك؛ وعقد لقاء مماثل أداره هذه المرة "أسقف كانتربري" السابق. ولقيت فيه بعض من كانوا قد شاركوا في اللقاء الأول. تم توزيع الملتقين على لجان وموائد، وطرحت عليهم أسئلة طلب منهم بيان مواقف أديانهم منها. أو موقفهم الدينيّ منها، ومع اختلاف المضمون بين اللقائين، لكن اللقائين كانا يصبّان في اتجاه واحد، وهو جعل فكرة التنسيق بين الأديان مرحليًّا ممكنة، تمهيدًا للعمل على إقامة "منظمة تعمل على تحقيق فكرة الأديان المتحدة" وجعلها مقبولة لدى الجميع!! وهل المسلمون اليوم يملكون شيئًا إلّا أن يقبلوا.

ثم علمت أن مكتبًا قد فتح في " الأمم المتحدة" للعمل والتنسيق معها لإيجاد "المنظمة الجديدة" ولو بعد حين-: فالأمر – إذًا - قد خرج من طور الفكرة، ومحاولات تهيئة الأذهان لها إلى طور التنفيذ والتحقيق .. وآنذاك سوف تنتهي المرجعيّات التي تتنافس في بلاد المسلمين، على ألقاب ما أنزل الله بها من سلطان، وكراسٍ لا قوائم لها. وسوف تنهار الأحلام الطائفيَّة مذهبيَّة كانت أم سياسيَّة؛ لأنَّ القوم يستهدفون "الإسلام والمسلمين معًا" لا فرق عندهم بين سنيٍ أو شيعيٍ إماميّ أو زيديّ أو إباضيّ. ولا فرق عندهم بين صوفيّ أو سلفيّ، أو مذهبيّ أو لا مذهبيّ. ولا بين عربيّ أو كرديّ أو تركمانيّ أو فارسيّ أو هنديّ. فهؤلاء جميعًا يمثّلون منابع "الإرهاب" أو أيَّة صفة أخرى يبتكرونها.

"المفبركان الباطل"

فهل "المفبركان الباطل" حلقة من حلقات هذه السلسلة؟ وهل يجب علينا الوقوف عند هذه الظاهرة، والحذر منها؟ وهل أراد الذين شاركوا في صناعته وفبركته تقديمه بين يدي

المنظّمة المقترحة لتتخذ منه "فرقانًا موحدًا" لها، ولتجعل منه مرجعيَّة دينيَّة واحدة ملزمة للجميع؟! كل ذلك محتمل!!

إذ لم يعد – هناك – شيء مستبعد في ظل قيادة عالم اليوم فكل ما كان بالأمس خيالًا أو أغرب من الخيال صار في عالم اليوم واقعًا، أو جزءًا من الواقع !!

لقد تعرض القرآن المجيد منذ نزول "**اقرأ**" على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) إلى كل ما عرفته البشريَّة من وسائل اللغو والتشويش والدس والافتراء والكذب والتكذيب، ومحاولات المحاكاة، والتقليد، والتحريف والمجادلة في كل شأن من شئونه، وهو صامد يتحدَّى الإنس والجن ويثبت عجزهم واستسلامهم، وفشلهم في الوقوف أمامه، والاستجابة لتحديه.

وليم جلادستون والقرآن:

ولم تتوقف المحاولات حتى يومنا هذا. والذاكرة التاريخية تعود بنا إلى عهد "وليم جلادستون" رئيس وزراء بريطانيا الذي لعب أدوارًا خطيرة في السياسات الاستعمارية البريطانيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ففي عهده جرى احتلال مصر. وهو الذي فك وحدة مصر والسودان. لقد رفع هذا الحاقد مرة بيده الملطخة بدماء المسلمين مصحفًا في مجلس العموم، وهو يخطب في أعضائه، وقال: "لن يكون لنا في الشرق مستقبل ما دام هذا القرآن يتلى، ثم أشار ناحية مكة وقال: " وكعبة تزار" فكانت دعوة صريحة للغرب المعاصر بضرورة استئصال القرآن، وتدمير الكعبة". والذي يعرف عن الغرب شيئًا يستطيع أن يدرك أن كلمات مثل هؤلاء القادة تحفر لنفسها مساكن في العقل والضمير الغربيّ، بحيث تظهر عند الحاجة والاستدعاء، ويعاد توظيفها، وتنفيذها بنوع غريب من "الجبريَّة".

المفاهيم الخاطئة:

لقد تعرض الإسلام منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان إلى عمليَّات تشويه، أوجدت مجموعة كبيرة من المفاهيم الخاطئة في عقول أبنائه وفي عقول غيرهم، حيث شاعت النظرة إلى الإسلام على أنّه خصم للتجديد، ونقيض للتحديث. وأنّ القرآن الكريم هو الذي أوجد هذه المواقف لدى المسلمين.

كما انتشر مفهوم مفاده أن لا فرصة للمسلمين لدخول العصر، واللِّحاق بركب المتقدمين إذا لم يتخل المسلمون عن الإسلام، ويبعدوا القرآن عن مجالات التأثير في حياتهم. وهناك مفهوم آخر قد شاع وجرى تداوله في عالم اليوم هو إيمان المغفلين من المسلمين "بعلمانيَّة الدول الغربيَّة" وأنّ الغرب قد بنى تقدمه على "الفصل بين الدين والدولة"، واستقر

في أذهان النخبة من أبناء المسلمين منذ القرنين الماضيين أنّ الدولة "ظاهرة مدنيَّة" يجب أن يكون لها استقلال مباشر عما أسموه "بالظاهرة الدينيّة". وقد فهم أبناء المسلمين هذا بهذا الشكل الحاد، ولم يلتفتوا إلى أن الدولة في الغرب لم تضع الدولة في مواجهة الدين، بل قامت بتنظيم العلاقة بين الاثنين بحيث يجعل ذلك التنظيم بينهما نوعًا من التعاضد والتماسك في تحقيق أهداف الأمَّة، أما المقلّدون من أبناء أمتنا وجلدتنا، فقد فهموا أن المطلوب — هو التخلي التام عن الدين ومحاصرة القرآن، كما فعل "أتاتورك" وكثير من حكام المسلمين بعد ذلك بأساليب متنوعة.

وأمام ذلك أصبح للقرآن أعداء من بين صفوف أبنائه ففقدت الأمَّة تماسكها، وبذلك تحقق "الجلادستون" ما تمنّى.

تغييب مفهوم الأمَّة:

إنَّ مفهوم "الأمَّة" لا يمكن له أن يعيش بعيدًا عن القرآن، وعن لغة القرآن، وحاكميَّة القرآن، وشريعة القرآن، وقيم القرآن، والسياسات الشرعيَّة للقرآن. والإرادة الإسلاميَّة التي يوجدها القرآن، والفاعليَّة التي يحققها القرآن!! والشرعيَّة التي يمنحها القرآن للحاكمين؛ وأنَّى لحكومات المسلمين أن تكسب شعوبها وتتضامن مع مواطنيها بدون رابطة القرآن؟!

إنّ العلاقة التي بناها القرآن بين الحاكم والمحكوم — هي علاقة الحاكم بالأمَّة المسلمة: علاقته بالناس وبالجماهير، لا بالأرض وحدها، وتلك هي العلاقة التي يهدي إليها القرآن.

وهي علاقة لا تتأثر بتعدد النظم، ولا بأشكالها؛ فلا تتحدد الأمَّة بأقاليم، ولا بحدود، بل تتحدد بالالتزام بالقرآن والتكلّم بلغة القرآن، وتقوم على قيم القرآن العليا: التوحيد والتزكية والعمران والأمَّة والدعوة.

فإن أنا أدركني الخوف اليوم على القرآن فليس مرد هذا الخوف أنّني لا أدرك أن للقرآن منزّلًا يحميه، بل لأن أمَّة القرآن لم تعد أمَّة للقرآن، وبذلك فإن القرآن لن يحميها وقد تخلت عنه، قال (تعالى): ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ **(الجمعة:٥)**، وحين ندرس أحوال المسلمين ندرك أن الذين حمَّلوا القرآن ثم لم يحملوه إلا "بالطريقة الحماريَّة" — أي: حملوه على ظهورهم لا في قلوبهم وعقولهم ونفوسهم لن يكون مصيرهم أحسن من مصائر أولئك الذين حمّلوا التوراة، بل سوف يكون أسوأ بكثير!!

إنّهم يعرفون أهميّة القرآن وفاعليَّته:

إنّهم يعرفون خطورة هذا القرآن أكثر مما يعرفها المنتسبون إلى الإسلام. إنّهم يعرفون أنّ هذا القرآن قد بنى أمَّة من قوم لم يتخيَّل أحد أنهم سوف يكوِّنون أمَّة. وبنى على أيديهم حضارة ما تزال غُرَّة في جبين تاريخ الحضارات. وأقام على الأرض عمرانًا ما شهدته الأرض قبل القرآن ولن تشهده بعده. كل ذلك يعرفونه، وتجهله غالبيَّة المسلمين، لذلك فإنّهم لن يتوقفوا عن محاربة القرآن. والقوم ذو نفس طويل؛ ألم يقل الجنرال اللّنبي في أوائل القرن الماضي: "الآن انتهت الحروب الصليبيَّة"!!

أنا لست خائفًا على القرآن مهما طالت معركتهم ضده، فللقرآن متكلِّم به، ومنزّل له يحميه ويحفظه. لكنّني خائف على المسلمين، وقد سقطت سائر دروعهم وهم يواجهون أقدارهم بصدور عارية، ولا يلتفتون إلاّ أنّهم قد صاروا أعداءً للّغتهم العربيَّة، وخصوصًا لتاريخهم، وأعداءً لآبائهم وأجدادهم، وعشَّاقًا لأعدائهم وجلاّديهم، بحيث ظهر فيهم سلمان رشدي وآياته الشيطانية، ونسرين التي وصفت القرآن المجيد "بالعار" وخليل عبد الكريم الذي لم يشتم أعدى أعداء الإسلام الإسلام والنبيّ والقرآن أقذع من شتمه، والقائمة طويلة، فكيف نتصدى لأعداء القرآن، وكيف نحمل رايته، وننقذ البشريَّة وأنفسنا به، هذا ما نحاوله

في دراستنا هذه وما قد يتلوها. سائلين منزّل القرآن العون، والتوفيق والتسديد. إنه سميع مجيب.

أزمات الإنسانيَّة والحل القرآني

لقد أنزل الله (تعالى) القرآن المجيد على عبده ورسوله مُحَّد (ﷺ) **﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩)** ومنذ بدء نزول القرآن ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يبين للناس الذي اختلفوا فيه بهذا الكتاب، ويجاهدهم به جهادًا كبيرًا، ليحملهم على التفكير والتذكر والتلاوة والتدبُّر والتعقُّل والترتيل ليعلم رافضوه والكافرون به أنَّهم كانوا كاذبين في تصوراتهم وأفكارهم، ورؤاهم ومعتقداتهم، وسلوكيَّاتهم وتصرّفاتهم وعلاقاتهم وسائر شأنهم، وليهتدي المؤمنون إلى التي هي أقوم في ذلك –كلّه – وفي غيره. فهو شفاءُ لما في الصدور وهدى ورحمة، وهو "منهج" يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام، وهو نور يخرج به الله من الظلمات إلى النور، وهو تزكية وتذكرة وبشرى ونذارة، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم[٢٢].

الأُمَّة واستجلاء معاني القرآن:

منذ أن لحق رسول الله (ﷺ) بالرفيق الأعلى والأمة المسلمة التي صُنعت بالقرآن على عين الله (تعالى) وبجهاد رسوله الأمين، والأسوة الحسنة التي قدّمها والسنن التي أرسى دعائمها: والأمة تسعى جاهدة للإلمام بمعاني القرآن، وإدراك مقاصده، واستجلاء مراميه وغاياته، والوصول إلى برد اليقين في فهمه ومعرفة تفسيره وتأويله. فأنتجت في سبيل ذلك علوم اللُّغة العربيّة بكل فروعها، وقعّدت قواعدها، ووضعت نحوها وصرفها، وأبرزت خصائصها، واستنبطت بيانها وبديعها ونثرها وأحرفها وألسنة قبائلها، والمؤتلف والمختلف فيها

[٢٢] خاصة في المجالات التي عرفت بالعلوم النقلية أو الإسلامية أو معارف الوحي أو العلوم الشرعية، وكذلك المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية. راجع بحثنا في هذه السلسلة الخاص بأسماء القرآن وصفاته من "دراسات قرآنية". إن هذه الأسماء والصفات التي سمّى الله (تعالى) بها القرآن أو وصفه بها لا ينبغي أن تؤخذ على أنّها مناقب أوصاف هدفها بيان الفضيلة، بل على أنّها محدّدات منهاجية منتجة لا بد من بذل العناية والجهد في تحليلها وفهمها

لتوظيف ذلك –كلّه – في استجلاء معاني ذلك القرآن، والكشف عن ذلك البيان، والفقه فيه، ومعرفة أساليبه، ومحاولة العروج إلى عليائه.

كما جُمِعَتْ سنن رسول الله (ﷺ) وآثار الصحابة وفقههم وتفسيراتهم وتأويلاتهم، وفتاوى قرائهم لبلوغ تلك الغايات، والعروج إلى سماء تلك الآيات. فكانت حصيلة تلك الجهود أن بلغت تراكمات ذلك حد بلوغ مرحلة تأسيس وتدوين ما عرف بـ"العلوم النقليَّة".

العلوم النقليَّة:

لقد تتابعت الجهود في مختلف المجالات، وتنوعت الاجتهادات، وكثرت وتعدّدت المقاربات حتى تراكمت لدى الأمَّة مجموعة هامة وكبيرة ومتنوعة من المعارف تحولت خلال القرنين الهجريين الأول والثاني إلى علوم وفنون ومعارف وصناعة مدّونة[٢٣]. وبقيت مدارس علماء الأمَّة تضيف عليها، وتحذف منها، وتطور فيها، وتتوسع في قضاياها حتى بلغت حدًا من تكامل في مشارف نهايات القرن الرابع الهجري: وهنا استوت على سوقها وعُرفت مبادئها، واستقرت وسائلها، وتمايزت مقاصدها عن وسائلها، واستقل كل منها بشيء من ذلك، فكانت أحد عشر علمًا، ما بين علوم وسائلية، مثل علوم اللغة والمنطق، وعلوم مقاصديَّة مثل علوم التفسير والحديث، والأصول والفقه والتوحيد، وذلك بقطع النظر عن تفرعاتها وشعبها الداخليَّة، وأنواع المعارف التي أخذ بعضها في حجز بعض حتى تجاوز عددها في القرن السادس وما تلاه مائة علم وفن[٢٤].

فهل أوصلت هذه العلوم والفنون والمعارف الأمَّة إلى غاياتها في القرآن؟ وبغيتها منه؟

---

٢٣ يذكر الذهبي في تاريخ الإسلام، ثم السيوطي في تاريخ الخلفاء أن هذه المعارف قد بدأ تدوينها رسميًا عام ١٤٣ هـ.

٢٤ على ما في موسوعة الإمام الرازي المتوفي عام ٦٠ هـ، ويراجع في ذلك بحثنا الذي لم ينشر عن فخر الدين الرازي: حياته، شيوخه، ومؤلفاته. وكذلك يراجع تصنيف العلوم للكندي، والفارابي، وابن حزم، وابن الساعي الأكفاني، وطاش كبرى زادة، وكذلك كتب المتأخرين أمثال أبجد العلوم ونحوها، فتلك الكتب والدراسات مفيدة في معرفة ذلك؛ وإحصاء تلك العلوم.

الجواب: أن كل تلك الجهود قد حومّت بالأمة حول بعض شواطئ ذلك الكتاب المجيد، الكريم، المكنون، وقدمت شيئًا من الفوائد، ولكنها قد قصرت عن الإلمام "بمطلق الكتاب" إذ هيمنت نسبيَّة البشر على ذلك "المطلق" وقيّدته إلى مدركاتها الظرفيّة ومحدّداتها الزمانيَّة والمكانيَّة، وسقوفها المعرفيَّة، وقاسته على الكتب التي سبقته من بعض الوجوه، فأدى ذلك كلُّه إلى بروز تفسيرات متضاربة، وتأويلات متناقضة، وفقه مختلف، وكلام متعسف، وأصول تمازجت بالفروع، وتحولت الوسائل اللغويَّة إلى مقاصد، بحيث صارت تتحكم أحيانًا في لغة القرآن، وصارت تلك المعارف مقصودة لذاتها، أو مرجعيات بديلة يستغنى بالرجوع إليها عن الرجوع إلى القرآن إلا على سبيل الاستشهاد. واتخذت السنن النبوية -بدورها- معضدات وشواهد ساندات لما سبره السابرون[٢٥]، وأصله المؤصلون لتلك المعارف والعلوم.

---

[٢٥] يراجع البرهان لإمام الحرمين الجويني، الفقرة ١٥٣٥، وقارن بـ ١٥٤٨. وتاريخ التشريع للخضري، وكتاب عياض السلمي استدلال الأصوليين بالكتاب والسنة، حيث أوضح كيف كان جمهرة الأصوليين يتخذون من أدلة الكتاب والسنة في الأعم الأغلب معضدات لما يتوصلون إليه. وكذلك المحصول بتحقيقنا في مباحث التقليد. أما تحكيم قواعد اللغة الوضعيَّة في لسان القرآن المعجز فسنتناوله إن شاء الله في الحلقة الخاصَّة "بعربيَّة القرآن" من هذه السلسلة: باعتبارها حلقة من حلقات هذه السلسة.

إطلاقيَّة القرآن والمعارف النقليَّة:

وإذ حجبت بعض تلك المعارف أنوار "إطلاق القرآن" وفككت وحدته البنائيّة تفككت معها "وحدة الأمة" وتفكك ائتلافها، وتناثر جمعها، وانحطت إلى مستوى التمزُّق الطائفي، والتشتُّت المذهبيّ. كما أن بعض هذه المعارف قد تجاوزت مع بُعد "الإطلاق" بُعد "العالميَّة في الخطاب القرآنيّ" وفسَّرته كما لو كان خطابًا قوميًّا منحصرا في قوم أو محيط جغرافيٍّ محدَّد أو فترة تاريخيَّة معيَّنة مما فتح أبوابًا كثيرة لطعن الطاعنين، وتحريف الغالين، وتأويلات الجاهلين، وانتحالات المبطلين[٢٦].

ومع تجاوز "إطلاق الكتاب" و "عالميّة الخطاب القرآني" اختفى بُعد "حاكميَّة الكتاب" وكما انزوت خصائص الشريعة التي أكدتها الآيات: ﴿**وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ**

---

[٢٦] يراجع كتاب القاضي الباقلاني المخطوط الانتصار لنقل القرآن الذي يكاد يستقرئ فيه شبهات أهل زمانه في هذا المجال، وكذلك مختصره المطبوع للصيرفي المسمى بالنكت ولمعرفة الآثار الخطيرة لتجاهل وتجاوز " المحددات المنهاجية للقرآن وعدم الوعي بها تراجع دراستنا أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلاميّة القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

ودراستنا ضمن هذه السلسلة: الخطاب العالمي في القرآن قيد الإعداد. ودراسة أخينا مصطفى جابر عالميَّة الخطاب القرآنيّ: دراسة تحليلية في السور المسبّحات الخمس –رسالة ماجستير لم تطبع طبعة عامّة بعد.

وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف:١٥٦-١٥٨) (١٥٦-١٥٨). لم يبرز لتلك المحدّدات المنهاجيَّة الأثر الذي كان ينبغي أن يظهر في تلك المعارف، وينعكس على تلك العلوم والفنون، ويسدَّد مسيرتها. وبذلك اتخذ تراثنا النقليُّ كثيرًا من السمات السلبيَّة، أو القابلة للنقد الَّتي لا تخفى على المختصين بتلك المعارف والفنون.

سبيل الخلاص هدف عالميٌّ:

ولتتجاوز "الأمَّة القطب" ثم العالم من بعدها الأزمات الفكريَّة والثقافيَّة، والصراعات والتناقضات الطائفيَّة والأمميَّة التي تأخذ بخناق البشريَّة اليوم، لابد من ابتغاء القرآن المجيد، والعروج إلى عليائه من جديد، والتعامل معه من ذات المنطلقات التي كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يتعامل معه بها باعتباره كلام الله (تبارك وتعالى) المطلق والمصدَّق والمهيمن والحاكم على كل ما عداه، وباعتباره الخطاب العالميَّ النازل بالشريعة السمحاء التي نفت ورفعت عن الناس الحرج، وأحلَّت لهم الطيّبات، وحرَّمت عليه الخبائث، ووضعت عنهم الإصر والأغلال التي كانت عليهم؛ فكانت رحمة للعالمين، وتخفيفًا عن الناس أجمعين إلى يوم الدين. والقرآن مهيمن على ما سبق بخاتميَّته، ومهيمن على ما لحق بإطلاقه وحاكميَّته، ومصدَّق على كل ما عداه بشموله وإحاطته.

إن سبيل الخلاص الوحيد يكمن في هذه العودة الصادقة المخلصة التامة إلى القرآن المكنون، فبها يمكن أن تبدأ مسيرتنا الكبرى، وانطلاقتنا الشاملة للخروج مما نحن فيه، ولتأسيس "البديل الحضاريّ الإسلاميّ العالميّ" القائم على الهدى والحق والقيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران والأمَّة والدعوة -إن شاء الله تعالى. وبدون تلك الرجعة الصادقة المخلصة إلى رحاب القرآن فإنَّه لا أمل للبشريَّة –كلها– ولا مُخرِج لها مما تتردى فيه، ولن تزيد حالتها الفوضويَّة إلا سوءًا وتدهورًا، وآنذاك "لن يبك ميت، ولن يفرح بمولود".

نقطة البداية في فهم الحالة الراهنة:

إنَّ نقطة البداية أو الانطلاق نحو الخروج من أزماتنا وبناء "البديل الحضاريّ الإسلاميّ العالميّ" تكمن في محاولة فهم الحالة الراهنة لأمتنا وللعالم –كلّه – من حولها، فهذا العالم – بكل ما فيه– صار يؤثِّر في كل شيء في أمتنا؛ فيؤثِّر في فكرها وأنماط حياتها، وسياساتها واقتصادها، بل وطرائق تعليمها وتدريبها وتربيتها، بحيث صار يختار لها ما تقرأ وما تدرس وما تسمع وما ترى، ولسان حاله يقول ما حكى القرآن من قول فرعون: **﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر:٢٩)**.

هنا نحتاج إلى دراسة "المآسي الإنسانيَّة الراهنة" و "الأزمة العالميَّة الحاليَّة" التي تزداد كثافة وظلامًا عبر الأيام بمنظور آخر، إذ تشخصّها وتفسرّها الدراسات اللاهوتيّة اليهوديّة والنصرانيّة، بل وبعض التوجهات الإسلاميّة مضافًا إليها البوذية والكنفوشيوسيَّة والشنتو وما إليها بأنها مآس وأزمات سببها "الانحراف عن الدين"[٢٧]؛ وهذا مسلَّم من حيث العموم

[٢٧] استمع العالم إلى الكثير من التحليلات حول "الزلزال الذي حدث في المحيط الهادي" وأطلق عليه "تسونامي" وضرب مساحات كبيرة من شواطئ جنوب شرق آسيا. وذهب ضحيَّة ما سبَّبه من أضرار مئات الألوف من البشر والحيوان فضلًا عن بلايين من الدولارات قدرت بها أضرار الممتلكات والأموال والزروع وما إليها. وكان أكثر المتضررّين بذلك أبناء جزر إندونيسية مسلمة وجاءت التحليلات اللاهوتيَّة التالية في التعليق عل أسباب ما حدث: فهناك تحليلات كنسيَّة استندت إلى الأناجيل، وقالت بأن السيد المسيح "قد تنبأ بحروب واضطرابات في العالم. وزلازل شديدة ومجاعات وأوبئة..." وأنَّه قال – وهو يهيئ أذهان تلامذته لمجيئه الثاني: "...وستظهر علامات في الشمس والقمر والنجوم. وتكون على الأرض ضيقَة على الأمم الواقعة في حيرة، لأن البحر والأمواج تعج وتجيش ويغمى على الناس من الرعب، ومن توقُّع ما سوف يجتاح المسكونة؛ إذ تتزعزع قوات السماوات... عندئذ يرون ابن الإنسان آتيًا في السحاب" انجيل لوقا تحت عنوان "نهاية العالم ومجيئ المسيح ثانية"(ص ٢٥٨و٢٥٩) فإذًا: كل هذا الذي يحدث إنما هو تمهيد المجيء الثاني للسيد المسيح – وبناءً على ذلك تتوقع قيادات دينيّة في أمريكا وغيرها، أن السيد المسيح قادم إلى العالم ثانية عام (٢٠٠٧) بالذات. وكل هذه الفوضى هي بعض المقدمّات الضروريّة لمجيئه عليه السلام. فنهاية الأرض ونهاية التاريخ لن تحدث إلا والنصرانيَّة بقيادة المسيح منتصرة وسائدة في الأرض –كلّها– . فالمسلمون لا حل أمامهم – والحال هذه– إلا التنصر أو الموت، واليهود الذين حاولوا صلبه، وأغروا به هذه المرة سيكفرون عن خطاياهم

وينضمون إلى السيد المسيح ابن الرب – ابن الإنسان!! والآخرون سوف يدخلون النصرانيَّة، وبعد ذلك تكون الخاتمة: نهاية التاريخ وسيادة النصرانيَّة – الأرض كلّها.

وهناك تحليلات يهوديّة لا تختلف كثيرًا إلا في بعض التفاصيل حيث إن لديهم "مشايا" أو "مشيح" ذا صفات خاصة يظهر ليحكم العالم منتصرًا لليهود واليهودية وتسبق قيام حكومته العالميّة مجموعة كوارث ومصائب. فالمصائب والكوارث – إذًا – محتمة الحدوث عند الفريقين. والمسلمون معرضون للتنصير أو الإبادة عند النصارى والإبادة فقط لا غير عند اليهود.

والنصارى يؤمنون بأن السيد المسيح قد أوجب عليهم أن يبشروا بالإنجيل ويحملوه إلى جميع الأمم "مرقس (١٥٢) (علامات نهاية الزمان) وذلك لكي يجد السيد المسيح النصرانيّة هي السائدة في العالم. وبالتالي فقد كان على ضحايا "تسونامي" أن يتنصروا قبل الكارثة، أو يبقوا على ما هم فيه من إسلام أو بوذيّة أو وثنيّة فيهلكوا، ويكونوا درسًا لسواهم.

أماَّ المسلمون فإنَّ المؤمنين منهم بعودة السيد المسيح الثانية، وبضرورة مجيئ المهدي المنتظر قبله فإنّهم لا يختلفون كثيرًا مع التصورات السابقة إلاّ بالتوقيت وبالضحايا فبعض هؤلاء كانوا يبشرون منذ سنة ٢٠٠٠م بأنّ السيد المسيح لابد أن يسبقه "المهدي المنتظر" الذي يملأ الأرض عدلًا بعد أن ملئت جورًا، والمهدي يحكم لسبع سنوات يملأ فيها الأرض عدلًا، ثم ينزل سيدنا عيسى ويصر على الصلاة خلف المهدي؛ لأن نزوله سوف يصادف وقت صلاة الفجر بتوقيت دمشق التي سوف ينزل فيها على منارة بيضاء، وينزل من المنارة مباشرة إلى فناء المسجد فيجد الصلاة قد أقيمت، والإمام "المهدي" قد تقدم فإذا شعر بوجود عيسى تراجع، وطلب من عيسى أن يؤم الصلاة فيرفض عيسى ويقول: "بعضكم لبعض أئمة" !! ويستندون في ذلك إلى أحاديث وأخبار وآثار تحتاج إلى التصديق القرآنيّ والهيمنة عليها. المهم: كانت فئات من هؤلاء تبشّر وتكتب النشرات بالإنترنت وسواه منذ سنة ٢٠٠٠ بأن زمن المهدي قد أطل، وأن ظهوره يغلب أن يكون سنة (٢٠٠٤م أو ٢٠٠٥م)، فإذا حسبنا الفارق بينه وبين نزول المسيح، وهو سبع سنوات، فذلك يعني أن نزول المسيح لن يكون فيما يذهب إليه هؤلاء سنة (٢٠٠٧) – أيّ: إنّه لن يكون في ولاية الرئيس جورج ووكر بوش الثانية؛ بل ربما يكون ذلك في ولاية "نيوتغرنكَج" أو أي جمهوري آخر يبسط البساط الأحمر للسيد المسيح ولكنّ النصارى لا يؤمنون بما تؤمن به هذه الطائفة من المسلمين. ولذلك فإن "الجودوكريستيان أو اليهود المسيحيِّين" لا يرون ما يمنع من مجيء المسيح قبل ذلك أو بعده بقليل: وأماَّ اليهود فإنّ المهم – عندهم – هو الحكم والنفوذ والسلطان. أما الدولة – عندهم – في قاعدة انطلاق ومقر قيادة؛ لكن النفوذ يجب أن يمتد ليشمل العالم –كلّه – فنحن نشهد – والحالة هذه – اتفاقًا لاهوتيًّا عجيبًا هو أحوج ما يكون إلى دراسات تحليليَّة متعمّقة تجلّي لنا ما وراء هذا التوافق العجيب على ضرورة شيوع الفتن والحروب والزلازل والمجاعات والأوبئة. كل هذه المصائب العالميَّة الكبرى التي تشم من كل منها رائحة الجريمة، يجب أن تسجل ضد مجاهيل. ويجري تواطؤ لاهوتيٌّ عجيب على التعمية على أسبابها ومقدّماتها، والدور الإنسانيّ والفعل الإنسانيّ فيها أو في إيقافها سواء أكانت حروبًا أو عمليَّات إفساد في البيئة، وتلويث في البر والبحر والجو وثقب الأوزون، وتغيير طبيعة الأرض والبحر والجو والعيث فيها فسادًا وتدمير عمرانها، والنظر إلى الطبيعة على أنّها عدو نصارعه لنصرعه وندمِّره لكي يحقق الإنسان الغربي "التنمية الشاملة" ويعيش في حالة علوّ في الأرض. والنظر إلى الإنسان الغربيّ على أنَّه "نهاية التاريخ" من أكثر الأوهام البشريَّة دفعًا باتجاه الإفساد في الأرض فلا تاريخ بعده. وهو نهاية التطور الإنسانيّ "السوبرمان" وكل ما عداه أنواع بشريَّة متدنّية يكفي أن تقدم له

الخامات والأيدي العاملة الرخيصة، وتتيح له فرصة التمتع بالفتات الذي يسمح للدورات الصناعيَّة والتجارية أن تستمر بالعمل.

ما الذي ساعد على بروز هذه التصورات:

إنَّ أبرز ما يلاحظه الباحث في هذه الظاهرة من الأسباب – هو: الغبش والاضطراب في إدراك مفهوم "اليوم الآخر" على حقيقته. وأنّه اليوم الذي يبعث الله (تبارك اسمه وتعالى) الخلق للحساب والجزاء على ما قدموا في هذه الحياة الدنيا. وأنّ تسميته "بيوم" ليس المراد منه أنّه يقع داخل الزمن الذي نعيشه؛ لأنّه مختلف تمامًا عن مفهوم "اليوم" وخارج عن مفهوم "الزمن" الدنيوي فهو لا يحدث إلا بعد "تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، وتسجير البحار، وانفطار السماء، وتفجير المحيطات والبحار، وبعثرة القبور. كما أنّه يوم كألف سنة مما تعدون. وذلك يعني أن هذا الزمن الذي نعيشه له نهاية حتميَّة، وغاية حدَّدها الخالق (تبارك وتعالى) تنتهي بالفناء: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ **(الرحمن:٢٦-٢٧)**. وبعد نهاية هذا الزمن تمامًا بما فيه ومن فيه. يجري البعث وتبدأ الآخرة دار الحساب. والإيمان باليوم الآخر هو الركن الثاني من أركان الإيمان. وهو منطلق وقاعدة "المسؤوليّة بكل أنواعها". والإيمان به من أشق الأمور وأصعبها على العقل الإنساني، والمشركون ينكرونه أشد الإنكار ويعجزون عن تصوره. والكتابيُّون الذين حرّفوا ما أوحي إلى رسلهم وأنبياهم أدخلوا عليه من التصورات الوثنيَّة والتغييرات ما جعله مفهومًا شديد الغموض، بالغ الاضطراب. ولا يتسع المجال – هنا – للدخول في تفاصيل ذلك. ومن المفيد لمن شاء أن يعرف اضطراب أهل الكتب في هذا أن يرجع إلى كتاب ابن حزم "الفصل في الملل والنحل" وإرشاد الحيارى لابن القيم والجواب الصحيح لابن تيميّة وإظهار الحق والوحي المحمدي لرشيد رضا. وقد أعدت رسائل جامعيَّة في عقيدة البعث والجزاء" كثيرة، فليرجع إليها. لأنّ الذي يهمنا هنا أن نوضح القاعدة الفكريَّة التي انطلقت منها هذه التفسيرات اللّاهوتيَّة العجيبة!!!

فإذا عرفت أنّ منطلق هذه التفسيرات – هو الاضطراب في فهم "الزمن واليوم الآخر، والفرق بين الحياة الدنيا والآخرة". فذلك يعني أن مآل تصوّر أصحاب الاعتقادات المنحرفة أو الباطلة في اليوم الآخر أن يقولوا بلسان المقال أو الحال: " إن هي إلا حياتنا الدنيا" والنتيجة الثانية: "وما نحن بمبعوثين"(الأنعام:٢٩)، ﴿**وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾ **(الأنعام:٢٩)**، ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ **(التغابن:٧)** والاعتقاد التوحيديّ الصحيح باليوم الآخر: أنّ الحياة دار عمل وعمل وعمل، وأن الدار الآخرة – وحدها – هي دار الجزاء والحساب والثواب والعقاب. ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ **(التوبة:١٠٥)**.

إذًا: فاضطراب الاعتقاد في اليوم الآخر أدى إلى القول "بنهاية التاريخ". وأنّ الجنة والنار أرضيَّتان فالفردوس "هو فردوس دنيوي يحدث بشكل خضوع العالم –كلّه – إلى مملكة واحدة تنهي الثنائيات، والصراع والتدافع (فمملكة صهيون– ومملكة المخلّص المسيح – ومملكة المخلّص المهدي المنتظر – وفردوس الاشتراكيَّة، واليوتوبيا التكنولوجيَّة) وكل هذه الجنان المفتعلة جنان أرضيَّة تحدث في الزمن" بمفهومه الأرضيّ". الموسوعة اليهوديّة (١/٨/مدخل نهاية التاريخ بتصرف "والنظم الحلوليَّة (اللاهوتيَّة منها والماديّة الوضعيّة) نظم مغلقة تفضي إلى القول بنهاية التاريخ، ففي "وحدة الوجود اللاّهوتيَّة" يحل الإله في الطبيعة، وفي الإنسان، فيستوعبهما في ذاته، ويصبح كل شيء تعبيرًا عن الإله، وتجسيدًا

له (ولا موجود إلا هو أو ما في الجبَّة إلا هو فينتهي التاريخ، ويلغي الزمن ويتحول إلى دورات متكررة تعاقبيَّة...وأمّا في " وحدة الوجود الماديَّة" فيحل الإله في الإنسان والطبيعة ويستوعب هو فيهما، ويصبح لا وجود للإله إلا بظهوره من خلالهما، والإنسان والطبيعة يتمثلان الإله ويحولانه إلى مجموعة من القوانين، منها "قوانين الطبيعة والمادة" و "قانون الحركة" و "قانون الصيرورة" ويصير كل شيء مسيرًا بهذه القوانين ...فمن أحاط علمًا بهذه القوانين بلغ المعرفة التي تمكنه من التحكم في العالم، وفي إنهاء التاريخ الإنساني والزمان، وفي بدء التاريخ الطبيعي وتأسيس الفردوس الأرضي. (الموسوعة اليهودية) وهكذا الموضوع نفسه يفقد "الإنسان والفعل الإنسانيّ قيمته ويصبح المخلّص ضرورة وحتميَّة في الرؤية اللّاهوتيّة وفي الرؤية الماديّة. أما "الرؤية الاسلاميَّة التوحيديَّة" فهي مغايرة لهذه الرؤى جميعها لا تتّسع لأيّ منها بحال: وبالتالي فلا بد للإنسان إذا رأى الظواهر المماثلة أن يدرك أن هنالك خللًا مّا قد حدث، فظهور التلوُّث والفساد في البر والبحر والجو لم يحدث بدون أسباب، وممارسات إنسانيّة خاطئة، ومثلها قضايا الفتن والحروب والصرعات. وثقب الأزون والتغيرات البيئية والجويّة بما كسبت أيدي الناس. وللتجارب النوويّة والهايدروجينيّة، والأسلحة الكيماويّة والبايلوجية أثمان باهظة تدفعها البشريَّة كلّها من صحتها، وسلامة بيئتها. ومثل ذلك إغراق حاملات النفايات النوويّة في المحيطات، أو دفنها في الصحاري... فهذه —كلّها — خارجة تمامًا عن إطار التفسيرات اللاهوتيّة.

ولقائل أن يقول: وماذا عن آيات قرآنيَّة كريمة ربطت بين ظلم الأمم وانحرافاتها وهلاكها، وكذلك أحاديث صحيحة فسّرت تلك الأحاديث مثل كثير من الآيات التي تحدثت عن مصائر الأمم والقرى التي عصت أنبياءها فأهلكها الله تعالى فإنّ الأنبياء كافة كانوا ينهون الأمم عن الفساد في الأرض: ﴿**وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**..﴾(**الأعراف:٨٥**)، ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ**﴾(**البقرة:١١-١٢**)، ﴿... **وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ**﴾(**البقرة:٢٠٥**)، ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾(**الروم:٤١**)، ﴿**فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ**﴾ (**هود:١١٦**).

والقرآن يفسّر بعضه بعضًا فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾(**السجدة:٢١**) مفسر بآية الروم وذلك يعني أن الإنسان الذي عاهد الله على التوحيد وتزكية نفسه وإعمار الأرض قد نقض العهد فأشرك أو ألحد ففقد "البوصلة الهادية" ولم يزك نفسه، ففقد أهليّته للوفاء بالعهد، والقيام بمهمة الاستخلاف فحقق مخاوف الملائكة الذين: ﴿.. **قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (**البقرة:٣٠**). وتخلى عن الأمانة التي حملها مختارًا. ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾ (**الأحزاب:٧٢**)، فلم يؤد حقها، ولم يأبه بالكون الذي اؤتمن عليه، ولم يصلح فيه، ولم يقم بما يقتضيه حق العمران. فلابد أن يعم الفساد والشرور البلاد، ويتمرد الكون عليه، وتنقلب الطبيعة ضده. وهو أي الإنسان أولًا وآخر المسئول "بمجموعه، وبمعنى الإنسانيَّة فيه" عن ذلك كلّه.

ولكنّ أصحاب كل دين – هنا – يعنون "بالانحراف عن الدين" الانحراف عن دينهم هم، وكل دين بمفهومه المستقل يعتبر التدين بالأديان الأخرى مظهرًا من مظاهر الانحراف عن الدين كذلك. وأنَّ هذا الانحراف يغضب الخالق (تبارك وتعالى) فيحل على البشر ذلك الغضبُ بشكل "لعنة" في مفهوم بعض الأديان، أو في شكل بلاء وعذاب في نظر البعض الآخر. ولعل ذلك ينبههم فيرجعوا عن ذنوبهم وخطاياهم وانحرافاتهم فتتوقف اللعنة أو تنتهي المأساة. وقد يرى البعض في كل ما يحدث تهيئة لشيء أكبر سيء أو حسن. ولا شك أن لهذا التصور ما قد يدل عليه، ولهذا التفسير للمأساة الإنسانية ما قد يعززه، ولكن كيف يصاغ ذلك؟

إنَّ لهذا التفسير عدة صياغات لعل أهمها الصياغة "العمرانيَّة" وهذه الصياغة لا يقف الباحثون المعاصرون عندها طويلًا، وإن هم فعلوا فإنَّهم يمسُّون بعض أجزائها من اقتصاد أو سياسة أو اجتماع أو تربية أو أخلاق، وحتى أولئك الذين يلاحظونها في مجملها فإنهم لا يتناولونها التناول الشامل، ولا يربطون بإحكام بينها وبين الدين، وبينها وبين التوحيد خاصَّة، باعتباره أساسًا ومنطلقًا للإيمان والعمران.

ولذلك فقد غلبت الصياغة "اللّاهوتية" في التفسير، وفي اقتراح الخلاص لاهوتيًّا كذلك، والصياغة "اللاهوتيَّة" من شأنها أن تخلط في الكثير الغالب بين ما هو وحي إلهيٌّ منزل صادر عن الإله الأزليّ الأحد– الذي أعطاه أقصى درجات الإطلاق والإحكام، وما بين نسبيَّة البشر من مفسَّرين ومؤولين، ولغويّين تتحكم بيئاتهم التاريخيَّة في المنتج المعرفيّ الذي يصلون إليه، أو يستنبطونه ويحملون الوحي عليه مهما حاولوا التجرُّد في مقاربتهم للنصوص الموحاة، حيث إنَّ هناك الكثير من المؤثِّرات التي تحيط بالباحث قد لا يتنبَّه إليها، لكنَّه لا

ونسبة بعض الظواهر للخالق تعالى في بعض الآيات والأحاديث الصحيحة – هي: لتذكير الإنسان بالحضور الإلهي باستمرار؛ لئلا يقع في خطأ الإحساس بهيمنة الأسباب الماديَّة على سبيل الإطلاق وعلى كل شيء، وينسى الدور الإلهيّ – أي: دور خالق الإنسان والكون والحياة، فيقع في حالة الإلحاد أو الشرك أو الحلول.

يستطيع التحرُّر منها؛ لأنَّها مثبتة في الثقافة، ومترسخة كامنة في التقاليد والأعراف، والمدلولات اللُّغويَّة، وما إليها، إضافة إلى تداخل الموروثات الدينيَّة ببعضها، هذه التداخلات التي تصل أحيانًا حد صعوبة التمييز بينها، فالموروث المسيحي وتداخله مع الموروث اليهوديّ لا يحتاج من يريد إثبات ذلك التداخل إلى كبير عناء، فالعهدان القديم والجديد يمثلان لدى Puritan"[٢٨] المتطهرين!! مرجعًا واحدًا، ولذلك فإنَّهم يفضلون أن يطلقوا على أنفسهم: أنَّهم "اليهود المسيحيُّون". وقد حجبت هذه التداخلات الموروثة والمتعاقبة الكثير من الفوارق المنهجيَّة بين الأديان، ومنها جوانب من تراث المسلمين الذي تداخلت معه وفيه كثير من "الإسرائيليات" بحيث أصبح ذلك جزءًا يصعب تمييزه عن التراث الإسلاميّ الذي بُني حول "الخطاب القرآني"، ومع أنَّ القرآن قد قام بنقد ذلك التراث وتمحيصه ثم التصديق عليه والهيمنة على جوانبه –كلها– لتصحيح مسار الدين عقيدة وعبادة وشريعة ونظام سلوك وأخلاق ومعاملات. بيد أن تفسيرات أهل التفسير وتأويلات أهل التأويل قد ضمت الكثير من التراث الإسرائيليّ لأسباب عديدة (لا يتسع المجال لتفصيلها هنا). ولعل من أهمَّها توهم التشابه بين موضوعات وقضايا "الخطاب القرآنيّ" وموضوعات الكتب الأخرى، فأسقطت على تفسيره وتأويلاته الاتجاهات التلموديَّة واللاهوتيَّة في التفسير والتأويل، ظنًا من المفسَّرين والمؤوّلين أنَّ التشابه في الموضوع يسوغ التشابه في التفسير والتأويل.[٢٩] فنقلوا من تفاسيرهم وتأويلاتهم الكثير.

---

[٢٨] أولئك المتدينون الأصوليون البيض الذين هيمنت على عقولهم في القرن السادس عشر فكرة الاتحاد أو التداخل بين الأساسيات اليهودية والمسيحية فاعتبروا أنفسهم جزءًا من شعب الله المختار، وجعلوا من ملك بريطانيا الذي اضطهد بعضهم، وهو "جيمس الأول" فرعونًا جديدًا وبريطانيا egypt الجديدة وأمريكا أو العالم الجديد هي أرض الميعاد الجديدة، والمحيط الذي عبروه إليها هو البحر الأحمر الذي أنفلق لعبورهم.

[٢٩] هناك نظريَّة شاعت بين المتخصَّصين في دراسات "مقارنة الأديان" في الغرب، مفادها: تأثير دين في آخر اعتمادًا على ملاحظة عامل التسلسل التاريخيّ وقد حاولوا بهذه النظريَّة تفسير التشابه الذي لا ينكر بين رسالات الأنبياء والمرسلين، وهذه النظريَّة لا نجد لها سندًا في القرآن المجيد. فالقرآن يؤكد مبدأ "وحدة الدين" و "وحدة الأنبياء" ومن

ضرورة بذل الجهود المعرفيَّة لتنقية التراث:

إنَّ تجريد المعارف الدينيّة التي بناها علماء المسلمين حول "الخطاب القرآنيّ" مما لحق بها، وكذلك نصوص الكتب السابقة اهتداءً بالتصديق والهيمنة القرآنيّين صار يتطلب جهدًا معرفيًا كبيرًا ومتنوعًا.

إنَّ هذا البناء المشوه للفكر البشريّ الدينيّ الذي لم يسلم أيّ تراث دينيّ من آثاره أدى إلى خلافات خطيرة سرعان ما تحولت إلى صراعات فكريَّة مذهبيَّة وطائفيَّة ودينيَّة بين حملة الأديان المختلفة، وانقسامات داخل الذين يدينون بالدين الواحد، وانشطارات داخل الفرق والطوائف، فإذا أضيف إلى ذلك ما سنأتي على توضيح بعض معالمه من تفكيك "الحداثة" وما بعد الحداثة "للمسلَّمات الدينيَّة" نستطيع أن ندرك – آنذاك – أن خروج الإنسان من الأزمات، وتجاوزه للمآسي المحيطة به، وخلاصه من ذلك –كلّه – لم يعد من الممكن أن يكون خلاصًا دينيًّا لاهوتيًّا وبمنطلق ومنطق لاهوتيّ، بل يمكن القول بأن بعض "التراث

البديهيّ أن مصدر الدين الواحد هو الله (تعالى). كما أن اصطفاء الأنبياء والمرسلين شأن اختص الله –(تعالى) به. وهذه الوحدة لا تعني ما فهمه أولئك من أن الاسلام دين ملفق من اليهوديَّة والنصرانيَّة فقد أساؤوا الفهم وحرموا الإنصاف. ولو درسوا الإسلام من مصدره المنشئ: القرآن المجيد، ومصدره المبيِّن السنّة لأدركوا العلاقة السليمة ادراكًا صحيحًا، ولعلموا أنَّ القرآن مصدّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه. ومستوعب لثابت المشترك بين الرسالات، ومتجاوزًا للمتغيِّر: إنّ القرآن المجيد بتصديقه على الكتب السابقة في نزولها قد راجع ما فيها، وميَّز الموحى من الله منها عن الذي أضافه أهل تلك الكتب أو ضيعوه من الذين "نسوا حظًا مما ذكروا به، والذين يحرّفون الكلم عن مواضعه..." ولو أدرك علماء اللاهوت هذه الحقيقة لأحدثت في سائر علوم اللاّهوت ثورة هائلة، ولاستغنوا عن كثير من النقد الذي لم يغن عنهم شيئًا، وربّما وفروا جهودهم في تأسيس علم" الهرمونيطيقا the hermeneutics" ولقادهم القرآن قيادة الرائد الذي لا يكذب أهله إلى الهدى ودين الحق الإلهي دين القيم المشتركة التي تستطيع أن توقف البشريَّة على صعيد هدى واحد بدلا من البحث عن تأسيس "منظمة لوحدة الأديان" لن يكون دورها أفضل من أدوار المنظمات الدوليَّة القاصرة. وراجع "التحرير والتنوير ٦/٢٢١" وفصولًا من كتاب "الظاهرة القرآنيّة" لمالك بن نبي، منها "الحركة النبويّة" و "الوحدة التشريعية" و "العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس"، وكتاب موريس بوكاي "الكتب المقدسة والعلم" وكتاب ابنتنا رقيّة "أثر العرف في فهم النصوص" قضايا المرأة أنموذجًا.

هامش ص ١٢ دمشق: دار الفكر– ١٤٢٤هـ٢٠٠٣م.

الدينيّ" قد صار معرقلًا ومعيقًا لأيَّة وسائل خلاص، إن وجدت سواء على المستوى العالمي، أو على المستوى المحليّ، أو الإقليميّ.

١-وإذا كانت "الصياغات اللّاهوتيَّة" لمعالجة الأزمات الإنسانيَّة لم تعد قادرة إلا على الإضافة إليها والزيادة فيها فذلك لا يعني أن الذين حصروا "الخلاص الإنسانيّ" بتحويل الإنسان نفسه إلى "مركز للكون" يتمركز حول نفسه، ويجعل منها ذاتًا ومن كل ما عداها هامشًا سيكونون أقل عجزًا عن مواجهة هذه الأزمات الإنسانيَّة والمآسي المترتبة عليها من حملة اللّاهوت والفكر المنبثق عنه.

فالنزعة الوضعيَّة "positivisme" قد حالت دون إيجاد حلول للأزمات الإنسانيّة، فقد قاوم الوضعيُّون كل ما هو غيبيٌّ باعتباره غير مرئيٍّ، وغير قابل للإدراك، حتى وجود الخالق رفضوه للسبب نفسه، كما رفضوا كل ما هو فوق الطبيعة أو ما يعد "ما ورائيًّا" لا يخضع للتجربة، ولا يدرك بالحس؛ فهم يمثِّلون رد فعل متطرف ضد الاستلاب اللّاهوتيّ أو الدينيّ بصفة عامة، وتحت هذا النوع من الضغط حصروا خلاص الإنسان في دائرة ذاته، أو في دائرة "الجدليَّة الماديَّة" وما رتّبوه عليها من حتميّات تاريخيَّة.

وهؤلاء بعد أن ركزوا على تعليق قضايا الخلاص الإنساني للذات الإنسانية حول نفسها، سارعوا بتبنّي الليبرالية "libéralisme" إطارًا لإطلاق حيوانيّة الإنسان وإشباع رغباته كلها دون قيود، فاستظهرت اللّيبرالية وتأصّلت بالفردية "individualisme" ثم سوغت "الفردية" بالنفعيَّة "utilitarianism" وأصّلت "النفعيّة" بالنزعة "الأدائيّة والأداتيّة أو العمليّة" واتخذت هذه النزعة الآليّة أو الأداتيّة "instrumental" نهجًا لتحقيقها.

الديمقراطية والحل:

وأمام مضاعفات "إطلاق الفرديَّة" وما أدت إليه من اغتراب وتفكيك وصراعات برزت "الديمقراطيَّة democracy" باعتبارها حلًا موهومًا أو مفترضًا في مجال "تقنين الصراع" واستيعاب القوى الجديدة، التي يفرزها المجتمع، فلم تكن "الديمقراطية" وليس من طبيعتها أن تكون حلًا للأزمات الإنسانيَّة، أو وسيلة للقضاء على الصراعات، وتوجيه البشرية للدخول في السلم كافة في سائر جوانب نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، إذ إن مهمتها فقط الحيلولة دون تفجر العلاقات بين أبناء المجتمع الواحد، واحتواء التناقضات بين فئاته وعناصره من خلال تقنين الصراع، واستيعاب القوى الجديدة في المجتمع. وهذا الاستيعاب كثيرًا ما يتم بشكل وهميّ!! حيث يخيَّل للإنسان في الإطار الديمقراطيّ أنّه شارك في صنع القرار بمجرَّد أن أدلى بصوته، أو عبَّر عن نفسه. والتعبير عن النفس شيء، والمشاركة في صنع القرار شيء آخر. والمعطيات التي تؤثر في صنع القرار كثيرة متعدّدة. ولذلك فإنّ كثيرًا من الرؤساء يجدون أنفسهم شاءوا أم أبوا عاجزين عن الالتزام بما أعلنوه في برامجهم المعروضة على الناخبين، ولا يملكون، ولا يملك منتخبوهم شيئًا.

لقد تحول الإنسان من خلال "الديمقراطيَّة" إلى أداة إنتاج واستهلاك يدار – ديمقراطيًّا – وبرضاه التام بوساطة طبقة مهيمنة متعالية تتبادل هذه الإدارة بشكل يستلفت النظر، وباعتبارها أحزابًا سياسية أوجدتها الشعوب للتعبير عن إرادتها. وإن كانت قد انبثقت في بادئ الأمر عن الشركات الكبرى. وبذلك تحول "المذهب الإنساني" الذي أقيم على "مركزيَّة الإنسان" إلى مجرد شكل أو شعار زاد في مآسي الإنسان ومعاناته واغترابه، وجعله يدور حول ذاته منقطعًا عن ربِّه، وعن محيطه وجذوره، فاقدًا لكل ما كان يربطه بكينونته الإنسانيَّة أو علاقاته العائليَّة أو تاريخه أو جذوره الحضاريَّة.

وبذلك وجد الإنسان نفسه يتخبط في "عبثيَّة وجوديَّة" تلقي به إلى مجاهل "الفراغ العدميّ" الذي جعله لا يبالي بشيء ولا يهمه أن يدرك شيئًا، فهو لا يدري أكثر من أنَّه لا يدري إذا توافر له الطعام والجنس. ودراسة أحوال الشعوب التي يسودها هذا النظام كفيلة بإبراز هذه الحقيقة المرّة. وإن تبجح قادتها بخلاف ذلك.

إنَّ شخصية مثل هذه إن كانت قد بقي لها من مكونات الشخصية أو الكينونة الإنسانيَّة شيء فهي مستلبة الوجود تمامًا(٣٠).

الإنسان حيوان إعلاميّ:

لذلك فقد جعلت الأنظمة المختلفة من الإنسان "حيوانًا إعلاميًا" تفرّغه من مقوّمات كينونته، وعناصر شخصيَّته لتشخص له كل شيء إعلاميًّا بكل ما لديها من وسائل وأجهزة إعلاميَّة، فهو لا يشحن أو تبنى شخصيَّته تربويًّا ولا حضاريًا، ولا دينيًّا، بل إعلاميًّا؛ لأنَّه بالإعلام يسخّر لخدمة النظام والأيدي الظاهرة والخفية فيه التي يدار الإنسان بها. فهو إنسان يدور بين ساقيتي الإنتاج والاستهلاك وقيادة الإعلام. أينما توجهه – خارج ذلك - لا يأت بخير، إلا ما يفرضه الثلاثيُّ المذكور، ومع ذلك يخيَّل إليه أنَّه شريك فعليٌّ أو مساهم حقيقيٌّ في القرار السياسيّ من خلال ذلك الصوت الذي يدلي به في مواسم الانتخابات. وحين تجد الطبقة المتحكمة ضرورة لتجاوزه فما أكثر الطرق التي تستطيع أن تسلكها لتحقيق ذلك!! والوضع الأمريكيُّ الراهن نموذج لذلك. حيث جرى تمرير الكثير من الإجراءات والقوانين المناقضة للديمقراطيَّة بكل معانيها القديمة والحديثة تحت ضغط الماكينة الإعلاميَّة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما كان لشيء منها أن يمر لولا ذلك.

---

٣٠ ننصح بالاطلاع على كتاب د. يمنى طريف "الحريّة والاغتراب" المنشور بالقاهرة

٢-هناك الفريق الثالث الذي اختار أتباعه للخلاص الإنسانيّ سبيلًا آخر، حيث توهموا وجود الخلاص في دائرة "الحتميّات التاريخيّة" و "الماديَّة الجدليّة" التي زعموا أنَّهم اكتشفوها والتي تمر من أقنية "الصراع الطبقيّ" وهؤلاء لم يكونوا أقل استلابًا للإنسان من اللَّيبراليين والرأسماليّين؛ فقد جردوا الإنسان –كذلك – من كينونته ووضعوه في إطار نمطيَّة أحاديّة مبوتقة لا تتصل بتاريخ الإنسان ولا بواقعه ولا مستقبله إلا من خلال الحزب المعبِّر عن مصالح الشعوب في إطار الطبقة والحزب وحدهما، وقد قطعت علاقة إنسانها بالتاريخ كلّه وبالحضارات الإنسانيَّة كافَّة، وجعلتها علاقة رفض ولعن وتحقير لها، فكلها حضارات طبقيَّة لم تأخذ "الشغيلة" فيها نصيبًا، وكل تلك الحضارات صنعها الجلادون وأعداء الشعوب، والإقطاعيُّون، ومن إليهم من البرجوازيّين. وكل دين هو أفيون معيق لتحرير الشعوب، فتجب محاصرة الأديان والقضاء عليها، وتحويل معابدها إلى ملاه ومراقص، ومتاحف إن أمكن، ويمكن للفنون من رقص وغناء ونحت ورسم وغيرها أن تلبي الحاجات النفسيّة والروحيّة لمن يجد في نفسه حاجة لذلك. وبلا مواربة وبعد خمس وسبعين عامًا أعلن أصحاب هذه الأطروحة موتها وفشلها. وارتدت تلك "الحتميات التاريخيّة" و "الماديَّة الجدليّة" على أصحابها بالخسران والخذلان، وتفككَّ الحزب والإمبراطوريَّة التي أقامها، قبل أن يبني الحزب جنَّته الأرضيَّة ليعيش فيها مجتمع الرفاهيَّة الذي وعد الناس به. وحين تهاوت تلك الأطروحة سرعان ما عادت إلى الظهور داخل الاتحاد السوفيتي المقبور العصبيَّات القوميَّة، والأصول العرقيّة والطائفيّة والدينيّة لتعلن أن النظريّات التي قامت على "الماديَّة الجدليّة" و "الحتميّات التاريخيّة" لم تستطع استئصالها أو تغييرها لكنَّها كمنت تحت سيف القهر، وحين وجدت فرصة للظهور المجدّد لم تتردد في

اغتنامها لتعلن أنها كانت أقوى من تلك النظريَّات التي زعموا أنها نظريّات خلاص.

ماذا عن أمتنا؟

إن شعوب أمتنا في جملتها تصنَّف فيما يعرف بـ"العالم الثالث" على تفاوت محدود في تلك الثالثيَّة. والأزمات والمآسي التي ترزح تحتها تمثل ضعف ما يجتاح عالم اليوم من مآسٍ وأزمات، ذلك أنها ترزح تحت مشكلات عالم ما قبل الصناعة التي ترجع إلى ما يعرف بـ"التخلُّف" فهي أكثر شعوب العالم تخلفًا بمعايير التقدم الصناعي والتقني والعلمي والتنموي. كما أنها لم تنس نصيبها من أزماتها الخاصة بها التي تحدرت إليها من ماضيها وبعض الجوانب السلبية من تراثها. ولم يخفف من وطأة تلك الأزمات ماضيها المجيد ولا كونها صانعة الحضارات الإنسانية التاريخية في وادي الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام والصين والهند وفارس واليمن. وأنها – بعد الإسلام – قد قدمت حضارة كان لها أثرها الحميد في تسديد مسيرة البشرية، وإرساء الدعائم التي مهدت لهذه الحضارة التي صارت تعرف بـ"الغربية".

إننا نقولها وكلنا حسرة: إن أمتنا في حالة سبات عميق لم تستيقظ منه بعد، ولم تسلك للنهوض سبيلًا، ولا تزال عاجزة عن الفعل، وتعيش حالة "ردود الأفعال" الناجمة عن الصدمات التي تصنعها وتبلورها الحضارة القائمة، الأوربيّة – الأمريكية، ولم ترتق بعد إلى حالة "الفعل" إذ لم تتوافر فيها شروط الفعل بعد، ففقدت الفاعليّة. وقياداتها– بمستوياتها المختلفة– أفرزتها تلك الصدمات: فكانت قشرة أو فئة أو طبقة فوقية صغيرة توزعت وانتمت إلى الخيارات الغربيَّة في الخلاص في خارطتها العامة: فكان منها الليبرالي والماركسيّ والرأسمالي والثوري والاشتراكيّ والانقلابيّ العسكري، أو الانقلابي الحزبيّ، وكذلك الدكتاتوريّ.

فكانت تلك الخيارات منبتّة منقطعة زادت في أزمات الأمة، فهي لم تنبع من تفاعل مبدع مع قضايا الأمة. وجل ما حدث في داخل تلك المجتمعات، وانبثق عنها، لم يكن من الفاعلية بحيث يؤدي إلى تطوير طبيعي فيها فبقيت حتى اليوم في افتقار شديد للقواعد الفكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة لتستند إليها وتبلور تجاربها، وتفجر طاقاتها، وتنمي أفكارها، وتنتقل بها إلى حالة الإبداع الضروريّة لأيّة نهضة.

وقد عانت مجتمعاتنا – ولا تزال تعاني - من التناقض الحاد بين القيم الغربية التي أفرزتها الحضارة الغربيّة المهيمنة، وعملت النخب الفوقيّة الحاكمة والمساعدة لها على غرسها وتبنيها وفرضها من علٍ على مجتمعاتنا[٣١] وبين مؤثرات وبقايا الأنساق الحضارية المغايرة، والموروثات الإيديولوجيّة والإدراكيّة المتأصّلة في ثقافتها، بحيث صارت ثقافة وأعرافًا وتقاليد ليس من اليسير على شعب مفارقتها بالأوامر والاجراءات الفوقيّة، وهم يحاولون الآن استيعاب الأمة واحتواءها في إطار "العولمة" المعاصرة ليفرضوا عليها خيارات الخلاص وفق مقاييس ومواصفات هذه العولمة المعاصرة التي تقودها أمريكا، وذلك بعد أن فرضوا عليها عولمة سابقة قادها الاستعمار الأوربي التقليدي فأدخلت إليها ليبرالية زائفة انتهت بدكتاتوريات الأحزاب والعسكر والقبائل والطوائف. وأضفت شرعيّة زائفة على العسف والاضطهاد بألوانه المختلفة.

العولمة وما تعنيه:

إن "العولمة" المعاصرة وإن بدت كما لو كانت عولمة اقتصادية فقط – لكنّها- في الواقع تعني – هذه المرة- الاستتباع والإلحاق بنظام عالميّ له مؤسّساته الدوليّة سياسيًّا واقتصاديًّا وأمنيًّا وتربويًّا وفكريًّا وحضاريًّا بل والمؤسَّسات الدينيَّة كذلك. وقد منحت هذه

---

[٣١] إن عمليات "التحديث" في مجتمعنا كانت وسائل تدمير لبناها التحتية، وبعض المتبقي لديها من قيم موروثة، وفشلها لم يعد يحتاج إلى دليل، وهذه –وحدها – تحتاج إلى جملة من الدراسات لتكشف عما لحق بالأمة من خسائر وآثار خطيرة نتيجة تلك العمليات التحديثية المرتجلة.

المؤسَّسات للعولمة شرعيَّتها، وأخذت من هذه المؤسَّسات تفويضًا تامًا بتغيير قيم العالم ونظمه وقياداته، بل صارت هذه المؤسسات أداتها ووسيلتها في إحداث تلك التغييرات القسريّة.

ولم تعد "العولمة المعاصرة" تقبل من الآخرين مجرد القبول بها، أو الانفتاح عليها، ثم التداخل الاقتصاديّ معها، لكنّها تصر على أن تعيد تشكيل أنظمة الشعوب والأمم الأخرى على صورتها، وتلحقها بها إلحاقًا عضويًا ليكون "الاستتباع" عضويًّا كاملًا غير منقوص لا يفرق فيه بين السياسيّ والاقتصاديّ والتعليميّ والثقافيّ والفنيّ والحضاريّ. وعمليّات الاستتباع الثقافيّ والحضاريّ لا ترحم، ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة من موروثات الشعوب الحضاريّة والمعرفيّة إلا قامت بتفكيكها، خاصة تلك الموروثات التي تقرر قيادة العولمة أنَّها قد تشكل عقبات ربما تحول دون تقبل هذه الشعوب لعمليات الاندماج في العولمة، ويتم هذا الاحتواء بعمليات جراحية كبيرة أو بسيطة تدعى "عمليات صراع الحضارات أو صدامها" ومنطق صدام الحضارات أو صراعها لا يفرق بين حضارة غائبة وحضارة قائمة ما دام لها بشر لا يزالون يعلنون الانتماء إليها. ويتضافر مع صراع أو صدام الحضارات أطروحات أخرى فرعية كثيرة نعايشها اليوم في كل أنحاء العالم، وسيؤدي ذلك كله إلى احتواء ليبراليّ لهذه الحضارات والثقافات وشعوبها، وذلك لأن منطق اللّيبرالية جعلها تؤمن بأنَّها "نهاية التاريخ"[٣٢]

الارتداد إلى الموروث:

والخطر الداهم – الآن – أنَّ شعوبنا لم تعد تملك سوى تراثها وموروثها الحضاريّ والدينيّ المنحدر إليها من أسلافها، وهو التراث الذي صاغه الأسلاف بطرائق إدراك ومعرفة خاصة عائدة إلى المكونات التاريخيَّة لذلك الموروث، وهو في سائر الأحوال له وعليه، وهنا مكمن الخطر إذ ستجد الأمة نفسها مسوقة دون اختيار للاحتماء بموروثاتها الحضاريَّة

---

[٣٢] أي: أنّها وصلت أعلى مستوى يمكن للإنسان أن يصله، فلن يجد التاريخ ما يسجله بعد ذلك. وراجع موسوعة اليهود واليهودية (١/٣٣٧-٣٣٨) وتأمل في الهامش (١٧) من هذه الدراسة.

والمذهبيَّة والثقافيَّة والأيديولوجيَّة دفاعًا عن النفس، ودون تمييز أو نقد أو تجديد أو تمحيص، وهنا سوف تدخل الأمَّة في حالة تعصُّب لموروثاتها بالحق وغيره، وهذه الحالة تجعلها في نظر العولمة أكثر تطرفًا وأصولية أو إرهابية إن أمكن هذا من وجهة نظرهم هم.

أما من وجهة نظرنا فإن الخطر في ذلك الارتداد غير المنظَّم إلى الماضي هو في أنّه سيحمل شعوبنا في رجعتها هذه إلى الموروث على التوقف عن المراجعة وتجميد سائر حواس النقد ووسائله – إن وجدت – وتوقيف أيّة ممارسات تجديدية داخلية – إن وجدت- إذ لا صوت يعلو حينئذ على صوت معركة الدفاع عن النفس: فتصبح محاولات "التجديد النوعي الداخلي" على ضعفها وقلتها بدعة من البدع أو تواطأ مع قيادة العولمة، وفي أقل الأحوال تبعيَّة واستحسانًا لبدائل العولمة: وتفقد الشعوب آنذاك القدرة على التمييز بين عناصر التحصُّن الداخليّ، وقوى الهجوم الخارجيّ فتدخل حالة "الفتنة التي تذر الحليم حيران".

وهكذا تبدو مشكلة "الخلاص الإنساني" أزمة مستفحلة وشاملة للمتقدم وللمتخلف، فللتقدم أزماته وللتخلف أزماته كذلك. ويستوي في العجز عن تحقيق "الخلاص الإنساني" الفريقان الفاعل والمنفعل.

فهل يكون الحل علميًا؟

لا شك أنَّ العلم قد تقدم كثيرًا، وتطور وارتاد آفاقًا تجاوزت الطموح الإنساني، وقد أصبح على مشارف اكتشاف "الكونيَّة" بكينونتها وعناصرها، ولا شك أن "الكونية" تحمل الحل، لكن البيئة الغربية الأمريكية والأوربية التي يعيش العلم ويتطور فيها وفي مؤسساتها لم تمكنه من الكشف عن القيمة الكونيَّة للإنسان، والقيمة الإلهية للوجود في تطورها العلميّ والفكريّ والمعرفيّ.

واللّاهوت لم يمارس تجديدًا نوعيًّا يمكِّنه من المساعدة على ذلك، والإسلام لم يكتشفوه بعد إلا من خلال أنظمة مهترئة، وأمثال ابن لادن وجون مُحَمَّد وصدام ومن إليهم، ولا يزالون يتعايشون مع تاريخ المسلمين أثناء الحروب الصليبيَّة، وحروب الدولة العثمانيَّة والأندلس، ويقيسون الإسلام على ذلك. وحاضر العالم الإسلامي لم يتمكن ولم يسمح لأسباب كثيرة بصياغة "الخطاب الإسلامي التجديديّ" ولا يملك القدرة على ذلك. وقد لا يرى الكثير من الدعاة ضرورة لذلك التجديد النوعيّ، فلا غرابة أن يلجأ العديد من اللّاهوتيين في الغرب إلى الترويج للعودة الثانية للسيد المسيح، وقد يحدد بعضهم سنة سبع بعد الألفين موعدًا لنزوله، أو ما بين سبع وتسع احتياطًا لينتهي التاريخ (بالمخلص والأبناء الذين يحبهم). في حين يسود شعور في بعض الأوساط الإسلامية (بأن المهدي قد أطل موعد ظهوره)، وأن ذلك قد يكون عام ٢٠٠٥م [٣٣]، وهكذا تتعاضد وتتظاهر المتداخلات اللّاهوتيَّة بين المتخصصين في الأديان على تدعيم وتعزيز أفكار مشتركة في الجذور وإن اختلفت في المظاهر والانعكاسات والتأثيرات.

أين الخلاص؟

لقد تبين مما قدمنا أن العالم –كلّه– اليوم يبحث عن "الخلاص الكليّ"، وهذا "الخلاص الكليّ" يتعذر أن تأتي به القوميّة العنصريّة أو الطبقيّة أو الحزبيّة أو الطائفيَّة أو الإقليميّة أو اللّاهوتيّة المتعصّبة أو الليبراليّة، أو الجدليَّة الماديّة والصراع الطبقي والحتميات التاريخيّة، أو أيّ طرح حصريّ أو أحاديّ ذاتيّ التكوين. ولا يمكن أن تأتي به "الديمقراطيَّة" و "العولمة" في طرحها الحالي: فالوضع العالمي الراهن لا يمكن أن يتقبل إلا حلولًا وبدائل قادرة على تقديم نفسها عالميًّا؛ بحيث لا يكون طرف يفرض، وطرف عليه أن يتقبل ويستجيب.

---

٣٣ ثم ينزل المسيح بعد ذلك. ويبدو أنَّ مؤلفي "المفبركان الباطل" أطلقوا اسم "الصفيّ" باعتباره المتلقي لهذا "المفبركان الباطل" واسم "المهدي" باعتباره من ترجم معانيه. وتأمل هامش (١٧) في هذه الدراسة.

وفي الوقت نفسه تكون قادرة على استيعاب وتجاوز فلسفات الأرض ومناهجها كافَّة، وليس هناك مصدر غير القرآن الكريم المحفوظ، المكنون، الهادي للتي هي أقوم يستطيع تحقيق هذين البعدين – معًا– أعني عالميَّة الحلول والبدائل والمعالجات وشموليَّة المنهج المعرفيّ، وقدراته الهائلة على التصديق والهيمنة والاستيعاب والتجاوز.

فالقرآن بخصائصه – ولا مصدر سواه – يستطيع أن يقوم بالتصديق والمراجعة ثم الهيمنة على سائر المناهج المطروحة، وإعادة صياغاتها ضمن منهجه الكوني. والقرآن – وحده – وبتصديقه وهيمنته قادر على استيعاب تلك المناهج وإصلاحها وتنقيتها وترقيتها ثم تجاوز السلبيّ منه والاحتفاظ بالإيجابيّ. فالقرآن هو الأقدر، على أن يعالج القرآن بمنهجيَّته القائمة على "الجمع بين القراءتين"[٣٤] مشكلات الوجود الإنساني وأزماته الفكريَّة والحضاريَّة، ويدخل الناس حالة السلم كافَّة.

إن القرآن ﴿**لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (**الواقعة:٧٩**) والمطهّرون هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وعهد الله لا يناله الظالمون، والسماوات والأرض ما خلقا باطلًا " مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ "، والإنسان بالغًا ما بلغ فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلقه: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُون**﴾ (**غافر:٥٧**). وليعطينا القرآن بعضه لا بد أن نعطيه نفوسنا وعقولنا وقلوبنا كلَّها، ولا بد من تحقيق عدة أمور تمهيدية قبل الولوج إلى رحابه:

الأول: تجريد وتنقية معارف وحيه من سائر آثار النسبيَّة البشريَّة التي أحاطت بمطلقه، وحجبت أنواره، وأخضعته لوعيها الذاتيّ، وحكمت عليه بتاريخانيَّتها، وحكَّمت بمحكمه أيديولوجيَّاتها وثقافاتها وأعرافها وتقاليدها، وقاموسها اللُّغويّ. فإذا لم نجرد "آيات الذكر الحكيم" من ذلك –كله – وإذا لم نعد قراءته بنور القراءتين المذكورتين في بداية نزوله وأوائل

[٣٤] قد فصلنا ذلك في حلقة الجمع بين القراءتين.

آياته، قال (تبارك وتعالى):﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ **(العلق١-٥)**. وفي إطار وحدته البنائيَّة.

فإننا لن نتمكن من فهمه معرفيًّا، ولن نتمكن من تحليل آياته وتثويرها واستنطاقها، وإذا لم نصل لهذا فلن نستطيع أن نستوعب به مناهج العلوم المعاصرة ونتجاوزها، بحيث نتمكن من إعادة فهمها وتوظيفها في إطار "الكونيَّة"؛ لأن ذلك – وحده- الذي سيساعدنا على إعادة بناء العقل الإنساني وصياغته انطلاقًا من: التوحيد والتزكية والعمران والأمة والدعوة صياغة كونيَّة إلهيَّة.

<u>**الثاني**</u>: الالتزام بالأمانة مع القرآن فكريًّا ونفسيًّا، فلا ندخل إلى عالم القرآن بحثًا عن شواهد لأفكار بنيناها بعيدًا عنه، ومبادئ وضعناها خارجه؛ لأن المطلوب أن نبدأ حركة التغيير بالقرآن من داخل النفس، فإذا تهيأت النفس وانفعلت به انعكس استعدادها وتهيؤها وانفعالها بالإصلاح على ما حولها، ثم تنداح دوائر الإصلاح – آنذاك – استعدادًا وتهيئًا على مستوى جماعيّ، وذلك أقوى بكثير من مشاريع إصلاحات فكر النهضة في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وإن كان فكر النهضة اجتهادًا صدر من أهله. كما أنَّ ما ندعو إليه أعمق من تحولات الأفكار الثوريّة، وأكثر فاعليّة من سائر التنظيمات التي قامت أو تقام على أساسها.

أما ما درج عليه المعاصرون من الإسلاميّين من الاهتمام بالحشد العدديّ والتركيز عليه، والاتجاه نحو التجميع الكمِّي دون فكر قرآنيّ، ودون منهج قرآنيّ صارم كذلك، والتصرف بعيدا عن منطلقات التغيير من داخل النفس، فإن ما يفعلون لا يعدو أن يكون مشروعًا سياسيًّا قد يؤدي في حالة نجاحه إلى تسلّطٍ فئة أو وصولها إلى سلطة في قطر مّا كليًّا أو جزئيًّا، لكن ذلك لن يؤدي إلى تغيير بالقرآن لما في النفس والمجتمع وجهاد به. والله لا يعطي

عهده للظالمين، ولا للذين يريدون علوًا في الأرض وفسادًا، أو أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، إذ إن مآل هؤلاء الخضوع إلى سنَّة "الصرف عن آيات الله" ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ (**الأعراف:١٤٦**) وأعمال هؤلاء الغافلين عن آيات الله لا قيمة لها ولا أثر في بناء العمران، أو صناعة التاريخ إلا الآثار السلبية، فهي أعمال حكم عليها بعدم الفاعليَّة التامَّة، وبفقدانها لأيَّة آثار عمرانيَّة إذ هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، كما أنَّها أعمال محكوم عليها بالحبوط.

الثالث: الدخول إليه بعد فهم "الأزمة" وإدراك أبعادها –كلّها – والإلمام بتعقيداتها، والإيمان بقدرة القرآن المجيد على إيجاد حل مناسب لها، وأن لا مصدر غير القرآن يستطيع أن يقدم العلاج الشافي فيها. ولذلك فلابد من الاطِّراح على أعتاب القرآن اطِّراح المفتقر، المدرك لتجرُّده من كل طول وحول للخروج من أزمته إلا بالله (تعالى) وكلماته.

الرابع: إدراك "الخصائص الذاتيَّة" للأمَّة القطب أو للأمَّة المنطلق التي يراد لها أن تكون ميدان الإصلاح والتغيير الأول، وقاعدة الانطلاق باتجاه "العالم والعالميَّة" وفي الحالة التي نحن فيها فإن "المنطلق" هو الأمَّة المسلمة– والعرب في موقع القلب منها – ما دامت لم تخضع بعد لسنَّة "الاستبدال" بإيجاد أمَّة مسلمة بديلة عنها. وخصائص المسلم الذاتيَّة – التي غرسها الإسلام فيه – هي الخصائص التي لابد أن تظهر في محيط الأمة، وتتحول إلى ثقافات وأعراف سائدة وجزء من الهُوِيَّة.

إنَّ خطاب الإصلاح والتغيير الذي جرى تكوين المسلم بمقتضاه خطاب قرآنيٌّ، فهو يتَّجه بشكل مباشر هادف إلى الإنسان في كينونته الكاملة عقلًا ونفسًا ووجدانًا وعاطفةً، فهو خطاب لا بد أن يبدأ بالإنسان ذاته ونفسه في إطار الأمَّة من غير انحراف نحو عرق أو

طبقة أو لاهوت أو ما إليها، فإنَّها –كلّها – تتنافى مع مكونات هذا الإنسان وخصائصه، ولا يمكن لأي نوع من أنواع الخطاب الأخرى التي تمت صياغاتها قديمًا أو حديثًا في أمريكا وأروبا وروسيا والصين وسواها أن تشكِّل منظومة دوافع الفاعليَّة لدى هذا الإنسان المسلم، لعجزها عن ملامسة خصائصه الذاتيّة وذلك قدره.

إن نجاح تلك الخطابات المغايرة في تشكيل الدوافع لدى الأمم الأخرى، وإحداث التغيير فيها لا يقوم دليلًا ضد ما ذكرنا، بل قد يعزز ما ذهبنا إليه. فلكل أمَّة خصائصها، ومفاتيح التغيير القادرة على ملامسة هذه الخصائص.

خطابات التغيير الأخرى:

ولقد شكل خطاب التغيير الطبقيّ مجموعة الدوافع التي انتهت بالثورة الفرنسية عام (١٧٩٨)م. وتحت تأثير ذلك الخطاب الطبقيّ – والثورات الطبقيَّة التي نجمت عنه – تحققت الثورة البلشفية في روسيا عام (١٩١٧)م. وبتأثير الخطاب العرقيّ قامت النازية عام (١٩٣٣)م في ألمانيا. وبالخطاب الّلاهوتي تأسست البابويَّة. وبخطاب المزج بين اللاّهوتي والعنصريّ العرقيّ تأسَّست دولة إسرائيل. لكن هذه الخطابات بسائر صيغها وبكل التعديلات التي أدخلت عليها لم تصنع ما استعير منها في الواقع الإسلامي وفي الواقع العربي منه بالذات ولن تصنع إلا مزيدًا من التفكُّك والتشرذم والسلبيَّة والتراجع، والمراكمة على رصيد التجارب الفاشلة.

وعلى ذلك فإنَّنا بحاجة لأن نوقن بهذه الحقيقة، وأن نجعل منها أمرًا بديهيًّا شائعًا في أوساط الأمة، وأن لا نمل التأكيد عليها حتى تستقر في العقول والقلوب والنفوس، وتنطلق بها الألسنة والأقلام لتصبح تيارًا أو روحًا يسري في الأمّة –كلّها- لتحدث حالة الاستعداد للنهوض، والتهيؤ لقبول "الحل القرآنيّ".

الأمَّة القطب بمجموعها وبخصائصها:

إن "خطاب الإصلاح القرآنيّ" خطاب تشكل الأمَّة الشاهدة معالم تطبيقه وتنفيذه وتحقيقه وتثبيته في الواقع – بعد خاتم النبيين الشاهد والشهيد-. الأمَّة الشاهدة القطب التي "لا تجتمع على ضلالة" و"لا تجتمع على خطأ" فهي ليست حزبًا ولا جماعة ولا حركة ولا طائفة ولا جمعيّة ولا فرقة ناجية، ولا هيئة وصاية، ولا هيئة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ولا مرجعيَّة، ولا قاعدة، ولا هيئة كبار علماء مهما كبروا، ولا مجموعة المجالس والمجامع، ولا الطائفة المنصورة، ولا منظمة المؤتمر الإسلامي، ولا جامعة الدول العربية، بل هي الأمَّة –

كلّها – باعتبارها أمَّة وبوصفها أمّة دون افتئات أو مصادرة عليها، أو حديث عنها بالنيابة والوكالة. إنّها الأمة القطب بخصائصها الذاتيَّة ومقوّماتها الفكريّة، وشخصيَّتها المتميزة. وأرجو ألا يذهب وَهْم أحد إلى أنني أدعو إلى إلغاء سائر التجمُّعات وتسريح سائر الدعاة، وإنهاء خدمات سائر المؤسّسات، (حتى ينتشر الوعي لدى الأمة –كلها – بفضل قراءة القرآن المجيد لتقوم قومة رجل واحد فتحدث النهضة، ويتحقق التغيير) لكنَّني قصدت أنَّه لابد لخطاب الإصلاح والتغيير لهذه الأمة أن يلاحظ خصائص التكوين عندما يصوغ خطاب التجديد والتغيير.

فما هي أهم خصائص التكوين؟

إنّ القرآن المجيد قد أخذ بأيدينا إلى أهم خصائص التكوين وتتلخصّ بـ"وحدة المرجعيَّة" "إيجاد الأمة الواحدة المتآلفة القلوب" و"الالتزام الجماعيّ المؤكد الصارم" بهذين الأمرين "وإيجاد آليّة لاستمرار ذلك"، وهي: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بشروطهما ومواصفاتهما ومستوياتهما. قال (تبارك وتعالى): **﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** (**آل عمران:١٠٣–١٠٥**) فالأمر بالاعتصام بحبل الله جميعًا، ونبذ التفرق والاختلاف جميعًا خطاب شامل للأمة –كلَّها – لا يستثني فردًا منها بحال، وفي ذلك تحديد للمرجعيَّة الواحدة من ناحية، وبناء لضمير الالتزام الجمعيّ الشامل – من ناحية أخرى – بجميع قضايا الأمة وفي ضمائر أبنائها كافَّة، وتأكيد على ضرورة الإرادة الجماعيَّة الشاملة في قلوب أبنائها جميعًا لتكون أمة، ولتبقى أو تستمر أمة قائمة، وهذه الأمور الثلاثة: (تحديد

المرجعية بالقرآن، والتأكيد الدائم على ضرورة الالتزام بها، وبناء ضمير الالتزام الجمعيّ في ضمائر أبنائها كافة، وإيجاد وترسيخ الإرادة الجماعيَّة الشاملة في قلوب أبناء الأمة كافة وصيانة ذلك- كلّه – بآلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تؤدي –كلها – إلى تحديد الرابطة بين أبناء الأمَّة –كلّها – ألا وهي الأخوة، وبيان الوسيلة التي أدت إلى ذلك وهي "التأليف بين القلوب" والتأكيد على أن أيَّ ضعف أو انحراف أو إخلال بمفهوم الأخوة وهيمنته على العلاقة بين المسلمين، أو تجاوز وسيلته الأساس ودعامته الكبرى ألا وهي "التأليف بين القلوب" يعني إنهاء الروابط داخل الأمّة، والدخول في حالة العداوة وبلوغ شفا حفرة من النار ثم السقوط فيها والعياذ بالله.

فما الذي يستلزمه ذلك؟

إن ذلك يستلزم أن تتمخض الأركان التي ذكرنا "وحدة المرجعيَّة" وتأكيد "الالتزام الجمعيّ" بقضايا الأمَّة، وتشكيل الضمير المتابع لذلك، و"تحقيق الإرادة الجمعيَّة" وتحقيق "التأليف بين القلوب" للوصول إلى حالة "الأخوة" تتمخض من أن تنبثق أمَّة من الأمَّة، بحيث تكون بعد ذلك الأمَّة كلها، وتضع في مقدَّمة أولويَّاتها بعد أن تتحقق هذه الأركان فيها، أن تبلغ بالأمَّة –كلَّها- حالة تجعلها قادرة على ممارسة دورها في الخلافة والشهود والعمران آنذاك.

فهذه الأمَّة تتحرك بالإرادة الجمعيَّة للأمَّة، لأنها منها، فتبقى الأمة هي الكيان الأساس، لا الحزب ولا التنظيم ولا الجماعة ولا الطائفة، ولا المذهب ولا الإقليم. ولذلك قال (تبارك وتعالى): **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (**آل عمران: ١٠٤**) فهذه الأمَّة الخيِّرة، المتحلية بكل هذه الصفات جزء من الأمّة، ملتصق بها، تكوَّنه الأمّة طليعة لها، للتفاعل معها، ومن التزامها بخصائص الأمّة. تستمد شرعيَّتها ووجودها، فهي مثل أعضاء الجسم الواحد أو كريَّات الدم

تؤدي أدوارها في التحام تام بالجسم، ودون انفصال عنه: فالجسم –كلّه – هو الذي يحمل لها الحياة، ويمدها بالحيويَّة، وهي تؤدي أدوارها فيه، ومن خلال ما ينتجه ذلك الجسم لها، فهما شيء واحد لا انفصام لهما.

وهذه الأمَّة التي تتكون منَّا بإرادتنا الجمعيّة، وباختيارنا الحر تتجسد أحيانًا في شكل نظام، وأحيانًا في شكل تنظيم وأيًّا كان الأمر فليس من حق النظام، أو التنظيم أن يتكون خارج الأمة، أو ينفصل عنها قبل التكوين أو بعده، أو يتجاهل أيًّا من الأركان التي جاءت بها آية "الاعتصام بحبل الله"؛ فإن هو فعل فسيخلق حالة عداء ويؤدي إلى التفرق والاختلاف، وكل ما يخلق أيًّا من هاتين الحالتين مرفوض ومردود، ولن يؤدي إلى تحقيق الهدف.

الأمة بين جور النظم وافتئات التنظيمات:

من المؤسف أن نرى أمتنا بعد أن طال عليها الأمد، وغابت عنها هذه القواعد تعيش بين حالتي استلاب قد أوكلتها إلى نظام يستلبها ويستعبدها ويستبد بها، أو إلى تنظيم يفتات عليها، ويمزّقها ويفرض نفسه عليها ناطقًا باسمها أحيانًا أو ممثّلًا لها أحيانًا، دون أي تشاور أو رجوع إليها؛ فكأنها تتذبذب بين جور النظام واستبداده، وبين تفرقة التنظيم وتصنيفه وتمزيقه لها، واستعلائه عليها، فتستجير بأحدهما من الآخر ولسان حالها يقول:

والمستجير بعمرو عند كربته *** كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولا خروج من هذه الدوامة إلاّ بأن يكون كل من النظام والتنظيم متلاحمًا مع الأمّة، ملتصقًا بها، وليكتسب كل منهما الفاعليَّة والشرعيَّة يجب ويتحتم أن يكون أمَّة في داخل الأمّة، وأمّة من ذات الأمَّة، لا يوجد أيُّ منهما خارجها، ولا يتخلق بمعزل عنها، ولا يتجاوز تاريخها ومكوّناته، ولا يتجاهل "جدليّة" ذلك التاريخ وهو يتحرك لتغيير ما فيها وإصلاح

أحوالها، بأن ينصرف إلى تكريس النظام وحمايته فيتحول إلى مستلب للأمَّة بالنظام، أو يتجه إلى الحزب أو إلى التنظيم فيتحول إلى مفرّق لها، فارض نفسه عليها، فيثير العداء في صفوفها، والاختلاف والتفرق بين أبنائها. ويوجد حالات الصراع الداخلي بين فصائلها.

منكم لا عليكم:

إن الأنظمة المستبدة – في مختلف أقطار أمتنا المسلمة وأقاليمها لم تأخذ بقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ** ..﴾(**آل عمران: ١٠٤**) فتحولت إلى "عليكم" فصارت متسلّطة علينا، مستبدة في شؤوننا مفتاتة علينا، مستلبة لإرادتنا تستمد شرعيّة وجودها من خارجنا، تسوغ ذلك لنفسها بشتى المسوغات، ومنها: قصور الأمّة، أو عجزها عن إدراك مصالحها!! وما من أمة مجتمعة إلا وهي أعقل وأحكم من أهل الاستبداد فيها مهما بلغت درجات تعلّمهم أو ذكائهم أو تدريبهم، فالزعيم المستبد يمكن أن يضل ويشقى ويخطئ ويجهل، أما الأمَّة إذا اجتمعت كلمتها، وتمتَّع أبناؤها بحقوقهم، واستردوا إنسانيّتهم ومارسوا حريّاتهم فمهما أخطأت فلن تجتمع على الخطأ، ومهما انحرفت فلن تجتمع على ضلالة.

لكن قيادات النظم المتجاهلة ل"منكم" والمتسلطة "عليكم" وكذلك التنظيمات ترى في الأمة أسوأ ما فيها فتستعلي عليها، وتستكبر، ثم تستلب إرادتها، وتستمرئ الطغيان عليها فتصبح الأمة – آنذاك – غثاء كغثاء السيل تلعن حاكميها ويلعنونها ولا يأتي أيُّ منهما بخير أينما توجّه. ويستعين كل منها على الآخر، ويستقوى عليه بالآخرين.

الاستبداد لا يأتي بخير:

إن "العبودية" رتبة شرف حين تختص بالله (تعالى) أمّا حين تصرف إلى غيره فهي مذلة وهوان وصغار فهي – آنذاك – أحط درك ينحدر الإنسان فيه.

ولقد هفا "حكيم الشرق" جمال الدين الأفغاني – رحمه الله- "وهفوات الكبار على أقدارهم"، وذلك حين قال: "إن هذه الأمة "المسلمة" لا تصلح إلا بمستبد عادل" ولو تأمل رحمه الله قوله (تعالى): **﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦-٧)** لأدرك أن "العدل و "الاستبداد" نقيضان لا يجتمعان في رجل أو نظام، أو تنظيم فإمَّا عدل وشورى فينتفي الاستبداد، وإما استبداد واستعلاء، فتنتفي الشورى، ويختفي العدل. وتظهر عبودية الإنسان للإنسان. والأمَّة التي تطاوع على ذلك أمَّة ناكثة لعهدها، متراجعة عن قولها "بلى شهدنا" ناقضة لعروة من أهم عرى "التوحيد" **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٧٢)**. ومستقيلة من مهمة الاستخلاف **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠)**. وهي خائنة للأمانة **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢)**.

وراسبة في اختبار الابتلاء **﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:٢)**. ومتخلية عن عبادة الله إلى عبادة العباد **﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل:٧٣-٧٦)**.

فكل هذه الانحرافات ثمرة لأزمة تصيب الأمَّة حين تتقبل حالة الاستلاب الطاغوتيّ، سواء أكان من نظام أو تنظيم، فهي بكماء خرساء أينما توجَّه لا تأتي بخير، كَلٌ على أولئك الذين استلبوها، غثاءُ كغثاء السيل.

لقد توهم فرعون أنّه إله حين طغى واستمرأ الطغيان، وطاوعته جماهير شعبه المخدوعة، المستذلّة المخلِدة إلى الأرض، فلبَّوا نداءه، فحشرهم، وإذ رأى كل تلك الجماهير الأصفار الصغار حوله انتشى، وأسكره خضوعها "...فانطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة، المليئة بالغرور والجهاله: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ **(النازعات: ٢٤)** قالها الطاغية مخدوعًا بغفلة جماهيره وإذعانها، وانقيادها. فما يخدع الطغاة شيء مثل ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها. وما الطاغية إلاّ فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانًا إنّما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها! فيجر! وتحنى له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى.

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى؛ وهذا الخوف لا ينبعث إلاّ من الوهم، فالطاغية – وهو فرد- لا يمكن أن يكون أقوى من الملايين والألوف لو أنّها شعرت بإنسانيّتها وكرامتها وعزتها وحريَّتها. وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنّه يملك لها شيئًا! وهو لا يملك لنفسه شيئًا. وما يمكن أن يطغى فرد في أمَّة كريمة أبدًا. وما يمكن أن يطغى فرد في أمّة رشيدة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمّة تعرف ربَّها، وتؤمن به، وتوحده، وتأبى أن تتعبّد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرًا ولا رشدًا...."[٣٥]

روى لنا وزير أوقاف أحد المستبدين أن سيده سأله مرة إن كان ممن تجب عليهم الزكاة؟ وبعد سلسلة من الألقاب قال له وزيره "نعم": تجب الزكاة على من يملكون النصاب،

[٣٥] في ظلال القرآن: (٣٨١٥/٦) تفسير سورة النازعات.

وسيادتكم منهم "فأجاب السيد الرئيس" ألا ترى أنني أطعم الشعب كله، وأوفر له الدواء والكساء والتعليم والنقل، ألا يعد هذا أكثر من الزكاة بالنسبة لي؟ فبهت الوزير ودعا للسيد الرئيس وانصرف. وهذا الرئيس كان قبل الرئاسة معدمًا عالة، ومن أسرة معدمة جعل رزقه مربوطًا بمسدسه يبتز به الضعفاء ويسلبهم أموالهم، إلى أن بدأ التدرج في سلالم الحزب والسلطة فاستلب الحزب واغتصب السلطة فأصبح مال الشعب كله ماله الشخصي، وكأنّه رأى في شعبه أولئك الضعفاء الذين كان يسلب ما معهم من نقود، ويضربهم وينصرف بما معهم على أنَّه ماله وحلاله مادام آل إليه ولو بالاغتصاب!!

أفيستغرب – بعد ذلك – أن ينهار هذا الشعب المستلب أمام أعدائه ولسان حاله يقول ما قاله الشاعر الجاهليّ:

لا أذود الطير عن شجرٍ **** قد بلوت المر من ثمره

وحين تفقد الأمة ثقتها بالنظام، وتنهار الجسور بينها وبينه، يبرز فيها الاستعداد لقبول البدائل إن وجدت، وهنا يأتي التنظيم، ويطرح نفسه بديلًا بين يدي الشعب، ويطرح من الشعارات ما يخلب الألباب، ويسوق انتقادات كثيرة للنظام، ويؤكد بأنَّه "منكم وإليكم"، فإذا ما منحت الأمة التنظيم شيئًا من ثقتها سرعان ما تبرز روح "عليكم" للتعبير عن التسلُّط والوصاية والامتياز وروح الاستعلاء، وكأن صفات النظام تتلبس بالتنظيم، بل تنمو فيه، وهنا ينبّه القرآن الكريم إلى هذه الحالة فيقول (تبارك وتعالى): ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ (البقرة:٢٠٤–٢٠٧).

ولتدخل الأمَّة في حالة السلم لابد لها من تجاوز- أي أن تتجاوز كل ما يثير عداءً بين أبنائها سابقًا أو لاحقًا، وكل ما يثير اختلافًا بين فصائلها. فالتنظيم الذي لا تتجسد فيه روح "منكم" بكل المعاني التي ذكرناها فإنه سيكون مصدر اختلاف، ومصدر تفرُّق، يسوغ لنفسه الاستعلاء والافتئات على الأمَّة، وقد يلوي أعناق النصوص، وينحرف بالخطاب ليدعم سياساته المنبثقة من روح "عليكم" وتصبح الأمة أو الشعوب بين مطرقة استلاب النظم وسندان استلاب التنظيم.

ظاهرة الصراع العربيّ الصهيوني ودلالاتها:

إن العالم اليوم يلاحظ ظاهرة الصراع العربيّ- الإسرائيليّ وما يجري في فلسطين من قتل وتشريد وتدمير، ويتخبط الناس في تفسير هذه الظاهرة خبط عشواء، ويعطونها من التفسيرات ما يشاءون، ولها عندنا من هدي القرآن ما يمكن أن يفسرها أو على الأقل يفتح لتفسيرها طريقًا يبسًا، يتلخص في أن الله (تبارك تعالى) قد حمّل بني إسرائيل التوراة فأبوا أن يحملوها، فقال فيهم (تبارك وتعالى):**﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (**الجمعة:٥**). وهؤلاء – اليوم – يواجهون أمَّة أخرى حُمِّلت القرآن فلم تحمله كذلك، وفي الآية الثانية من سورة الجمعة يقول (تعالى) **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (**الجمعة:٢-٣**).

فهذه الأمّة المسلمة المسكينة بلغت ذات المستوى الذي بلغه شعب بني إسرائيل حيث حمِّلت الأمّة المسلمة القرآن فلم تحمله إلا بتلك "الطريقة الحماريَّة"، نقرأه على موتانا، وتتسلى به إذاعاتنا، ويتبرك به كسالانا، وتضعه فتياتنا على صدورهن العارية، فما هي النتيجة؟ بنو إسرائيل **﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ**

وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ (آل عمران:١١٢). وبذات الطريقة حملنا القرآن الكريم – على الظهور، لا في القلوب والعقول - فضربت علينا الذلة، وأمددنا أعداءها بحبل انحراف منَّا، حين نزع الله منا أمانة الاستخلاف، وجعلنا في مواجهة قدرية معهم، لا في فلسطين – وحدها – بل في العالم كلّه. وكل من الشعبين في حالة مماثلة للآخر من حيث موقف كل منهما من الرسالة الإلهيَّة التي حُمِّلها، والأمانة الربّانيَّة التي اؤتمن عليها، إنّ وعد الله حق، وقد وعد (جل شأنه) أن تكون العاقبة للمتقين، ووعد أنّ الأرض يرثها عباد الله الصالحون، وذلك كائن لا محالة، فمن صلح وتحقق بالتقوى، وارتدى لباسها وتحلّى بالصلاح، وحققه في نفسه وفيما ينتمي إليه استحق ذلك ولا شك. ولا يكون ذلك إلاّ للذين يحملون القرآن حمل البشر المستخلفين، لا حمل الحُمُر المستذلّين، فكلا الشعبين "العربي والإسرائيلي" تم استخلافه في هذه المنطقة من قبل في مرحلتين مختلفتين، وكلُ منهما تلقى من الله (تبارك وتعالى) كتابًا وحُمّل رسالة وأمانة، وأمر باتّباع ما في الكتاب وعبادة الله (تبارك وتعالى) وكل منهما قد تصرف في تاريخ هذه المنطقة وأثَّر فيها، فبنو إسرائيل تفرقوا لمدة (١٤) قرنًا من حين دخلوا أريحا في القرن (١٤) قبل الميلاد، وأمتنا قد بدأت هيمنتها على المنطقة مع الإسلام قبل (١٤) قرنًا كذلك. ثم بدأت الهجمة الصهيونيَّة الحديثة، ووجدنا أنفسنا – الآن – وجهًا لوجه متصارعين في ذات المنطقة، وفي إطار مثّلث التجوال الإبراهيميّ الجغرافيّ التاريخيّ – الذي صار بذلك الصراع منطقة ملتهبة – هم معهم المدد الأمريكيّ الغربيّ، وأهم منه مدد انحرافاتنا وأخطائنا، ونحن معنا مدد البترول والمعادن والثروات الكامنة في أراضينا ومواقعنا الاستراتيجيَّة التي قمنا عليها وأقمنا على ثرواتنا السفهاء الذين نهانا القرآن أن نؤتيهم أموالنا، أو نمكّنهم منها؛ وتشير آيات الكتاب الكريم إلى هذا الموقف في قوله (تعالى): **﴿... وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا...﴾** التي جاءت في سياق الآيات المبيّنة لقدر بني إسرائيل، والمنبّهة إلى جبريّة حكمت حلقات التاريخ الإسرائيليّ -كلّها- قامت على عهد بينهم وبين الله أخلوا به، وحاكميَّة إلهية تمردوا عليها، مرات ومرات. وعلى ميثاق أخذ عليهم

أن يبيّنوا ولا يكتموا ويسمعوا ويطيعوا. فلم يفعلوا، وعلى شريعة خاصّة بهم ما رعوها حق رعايتها ومجموعة من المعجزات الحسّيّة الكافية التي طلبوها ومُنحوها، ثم تجاهلوها، واستمروا في غيّهم وإفسادهم في الأرض. قال (تعالى): ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا**﴾ (**الإسراء: ٤-٨**).

فماذا عن أهل القرآن؟

إنّهم حمّلوا القرآن، ثم لم يحملوه إلا لفترة قصيرة هي الفترة التي صاروا فيها "أمّة" لاعتصامهم بالقرآن. بل جعلهم الذكر الحكيم خير أمّة أخرجت للناس، ومنحهم الوسطيّة، وضم إلى كنف الإسلام الشعوب الأميَّة التي أبى بنو إسرائيل الاهتمام بها ﴿**قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾ (**آل عمران: ٧٥**) ومكنهم من هزيمة القوّتين الأعظم في العالم القديم: "الفرس والروم" وما كانوا ليهزموا أيًّا منهما لو ركنوا إلى أنفسهم وطاقاتهم، ولكنّه أثر فعل الله في الواقع. وعونه لهم، ونصره لهم على عدوهم ﴿**... وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّه**﴾.

ثم بنوا حضارة كانت غرّة في جبين الحضارات الإنسانيَّة. ولما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم، وظنّوا أن ما حقّقوا إنّما حققوه "...على علم عندهم..."، ولم يعودوا يلاحظون أثر فعل الله في كل ما تحقق، وما سيحدث: بدأوا مسيرة التراجع والتقهقر، ولم يرجعوا، ولم يلتفتوا إلى سنن القرآن، وقوانين الحركة في التاريخ والمجتمع. وبدأوا يعطون لكل ما يحدث لهم وحولهم

من ظواهر مختلف التفسيرات إلاّ "التفسير القرآنيّ" لقيام الأمم، وسقوطها، وبناء الحضارات وانهدامها، ورقيّ الشعوب وهبوطها. وتبادل الأيام ومداولتها.

وهكذا انفكت عرى وحدة الأمة، وانتقضت عرى المسلمين عروة عروة، فلم تعد علاقتهم بالقرآن إلاّ علاقة شكليَّة، هي أشبه ما تكون بعلاقة جغرافيَّة أو قوميَّة.

وهكذا واتت الجرأة أعداء الإسلام أن يتصدّوا للقرآن ذاته، وقد كانوا من قبل يتحاشون أن يفعلوا ذلك صراحة لئلا تشعر قطع الأمَّة الممزَّقة بجدِّيَّة الخطر، وضخامته فتنتعش فيها دوافع الحياة، وتبدأ بمحاولات التأليف بينها، والالتئام والتلاصق والتلاحم من جديد.

لقد تجرؤا على القرآن، لأنّهم أدركوا أنّ الهوّة بين "حقيقة القرآن" وبين المسلمين قد أصبحت سحيقة؛ نعم إنّهم يحسنون زخرفته، وطباعته وتجليده، وقراءته على موتاهم، والتغنّي به في إذاعاتهم وفضائيّاتهم، وتحفيظه للنابهين من أبنائهم. وعقد المسابقات بين القارئين، أو الحافظين لسوره وآياته أحيانًا. لكنّهم لا يحسنون فهمه، ولا التلقي عنه، ولا إدراك معانيه، ولا الإلمام بمقاصده ومراميه، فبينهم وبين ذلك مفاوز وقفار.

بعض أسباب الفصام الحالي بين القرآن وحملته:

يمكن إرجاعها لأسباب عديدة منها:

١-١ تراجع علاقتهم باللُّغة العربيَّة عامّة، فضلًا عن لسان القرآن خاصّة. فمنذ قرون واللُّغة العربيَّة تشهد عمليَّات حصار وتهميش وسخريَّة وإقصاء كاد يجعلها لغة ثانويَّة عند أهلها. وفي عصرنا هذا حين يحلو للبعض أن يذكر "اللّغات الحيَّة" على حد تعبيرهم فإنّهم لا يجدون للعربيَّة موقعًا بينها.

١-٢ سيادة اللّهجات العاميَّة أو ما أسميّته "باللّهجات العاميَّة المطوّرة" في أجهزة الإعلام، والتعليم والصحافة، فقَلَّ أن تجد من يلتفت إلى قواعد النحو والصرف، والأحكام اللّغويّة في هذه الأجهزة. يضاف إلى ذلك كثرة استعمال القيادات السياسيَّة، والدينيَّة وكثير من دوائر الدول للغة لا هي بالفصحى، ولا هي بالعاميَّة المحصنة، مما أوجد حالة اغتراب ملحوظ للّغة العربيَّة بين أهلها.

١-٣ إخراج اللّغة العربيَّة من دائرة اللُّغات العلميَّة واعتبارها غير صالحة لأن تكون لغة علوم.

هذا العامل قد أوجد حاجزًا سميكًا بين العرب والمسلمين وبين القرآن. -وسنتناول هذا العامل تفصيلًا في الحلقة الخاصة "بعربيَّة القرآن"- ولذلك فإنّه ما لم تسارع الأمَّة إلى إعادة بناء الجسور بينها وبين لغتها العربيَّة الفصحى، وتيسير سبل تعليمها وتعلّمها فإن الفجوة بين الأمّة وبين القرآن سوف تزداد اتساعًا. مثل ما اتسعت الفجوة بين خط القرآن وإملائه، وبين الخطوط الأخرى بشكل جعل كثيرًا من الأساتذة، وحملة الألقاب العلميَّة فضلًا عن الأبناء يخطئون في قراءة القرآن؛ لانعدام الإلف بينهم وبين إملائه وخطه.

٢-١ تكاسل الناس عن قراءة القرآن المجيد. لقد كان المسلمون في جيل التلقي لا يشغل أحدهم شيء عن القرآن، فلكل منهم ورد قرآنيّ يقرأه بفهم ووعي وإدراك، ويعمل بمقتضاه. ولا يستطيع أحدهم أن يمضي يومًا أو ليلة دون قراءة في القرآن عدا ما كانوا يقرؤونه في صلواتهم. ولذلك فإنَّ عقل الإنسان المسلم وقلبه ووجدانه يكون في حالة استحضار دائم للقرآن المجيد. ويكون القرآن في حالة حضور دائم في كل بيت، وبين أبناء الأسرة المسلمة كلّها.

٢-٢ لم تكن أيَّة شريحة من شرائح المجتمع تنسى نصيبها من القرآن: فالفقيه والقاضي والمفتي والعالم والمتعلم على صلة دائمة بآيات الأحكام في أقل تقدير وكل منهم يستدعي آيات القرآن كلّها – ولا بدَّ- ليتمكن من ممارسة مهامه.

وأرباب الحرف والصنائع، والمهتمون بقضايا التربية والتعليم وبناء الأخلاق والرجال والنساء والأساتذة والطلاب والباعة والتجار وسواهم، لكل صنف من أولئك نصيب من القرآن يشدُّهم إليه كلَّه.

٢-٣ لقد كان أول ما يبدأ الأبناء بتعلّمه عند بلوغ سن التمييز القرآن يتعلمون قراءته في تلك السن المبكرة، ويتعلمون معه أهم أحكام التجويد، ومن رسمه وكتابته يتعلمون الخط فيرتسم ذلك –كلّه – في عقولهم وأذهانهم، وينطبع في قلوبهم. ويتأثر به وجدانهم، وتنفعل به نفوسهم. ولذلك أثر بالغ في التكوين العقليّ والنفسيّ للناشئة. وقد يحفظونه عن ظهر قلب فتنمو بذلك قدراتهم الذهنيّة، فيكسبون حصيلة لغويّة وفكريّة ومعرفيَّة ليس من السهل الحصول عليها بواسطة أخرى. لقد لاحظ أعداء هذه الأمَّة غياب ذلك –كلّه- ولاحظوا أن المسلم لم يعد قادرًا على الاتصال بالقرآن مباشرة –بعد الفجوة اللّغوية الواسعة والقراءات التجزيئية –بل لا بد له من الوسائط العديدة، وفي مقدّمة تلك الوسائط. كتب التفسير والتأويل – قديمها وحديثها: وللمفسّرين مذاهب واتجاهات، وانتماءات كثيرًا ما تتأثّر تفاسيرهم بها، فهناك تفاسير عقليّة، وتفاسير إشاريَّة، وتفاسير رجال الطوائف على كثرتها، وتفاسير أهل الرأي وأهل الأثر. وهناك تفاسير شحنت بالإسرائيليّات[٣٦] والقصص وجل هذه التفاسير شكلّت وما تزال تشكّل عوائق بين القرآن الميسّر للذكر وبين تدبُّر القارئين وتفكرّهم وتعقّلهم وتذكرّهم؛ بل إنّها في كثير من الأحيان تجعل الناس مشغولين بها أكثر من انشغالهم بالقرآن ذاته – لأنّها لم تُعدَّ لقيادة القارئين وهدايتهم إلى تلاوة القرآن حق تلاوته وتدبُّره، وتعليمهم طرائق ترتيله وتلاوته حق التلاوة، بل لتبيّن لهم معانيه –كما يفهمها

---

[٣٦] هناك دراسات كثيرة صدرت حول الإسرائيليّات في التفسير والحديث وغيرهما، منها ما أورده ابن حزم في مواضع متفرقة من "الأحكام" وما نبّه إليه ابن تيمية وابن خلدون وغيرهما. ومن المحدثين كتب في ذلك الشيخ الذهبي وأبو شهبه ومُحَمَّد عزة دروزه وآخرون. وراجع بحثنا المنشور في مقاصد الشريعة حول "الفقه الإسلامي ماله وما عليه" نشر دار الهادي في بيروت.

المفسَّرون والمؤّلون – في إطار النسبية البشريّة ونماذج المفسرين المعرفيّة وطبائعهم في التلقي والفهم وقدراتهم، وتأثّرهم –بعد ذلك – بسائر المعطيات والمؤثّرات الفكريّة واللّغويّة والثقافيّة، وما إليها مما تزخر به بيئاتهم.

فهي كالترجمات بالنسبة للناطقين بغير العربيَّة لن يتمكن القارئ للقرآن بواسطتها أن ينفذ إلى إعجازه، وسموّ بلاغته وفصاحته، وإدراك عظمة بيانه. ومكنونات آياته والحظوة بأنواره وتأثيره وهدايته. بل يقتصر وعيه على جزء من وعي المترجم الذي عبَّر عنه بترجمته المحاطة بكثير من جوانب القصور والنّسبيَّة. قد يكتسب الإنسان من التفسير والترجمة عائدًا معرفيًّا أو عقليًّا محدودًا، لكن من الصعب أن يحصل من ذلك على العائد النفسيّ والوجدانيّ، أو على العائد العقليّ الممتد المتِّسع الذي يصوغ الشخصيّة الإنسانيَّة الإسلاميَّة بكل جوانبها.

٢-٤ شيوع الأفكار الدهريَّة والعلمانيَّة التي أكدت وما تزال تؤكد أن القرآن المجيد "كتاب دينيٌّ" شأنه شأن أي كتاب دينيٍّ آخر تنحصر اهتماماته بالشأن الأخروي، والتعبّدي الذي يغلب أن يصنَّف في "اللامعقول" فانفصلت النخبة وأصحاب النفوذ السياسيّ والأكاديميّ في الغالب عن القرآن، واتخذته مهجورًا.

وكرست "ازدواجيَّة التعليم"، هذا البعد الخطير الذي هيمن على التعليم في سائر بلاد المسلمين. وبذلك سادت الغفلة عن "حاكميّة الكتاب، وشريعة التخفيف والرحمة، وختم النبوّة" وسائر خصائص القرآن. ولم يعد الكثيرون يدركون القرآن، واشتماله على الذكر الذي جاء النبيّون –كافة – به، وكونيَّته وتصديقه على كل ما سبق وهيمنته على ذلك كلّه.

ومن غفل عن مبنى القرآن فلن يتمكن أن يدرك خصائصه ومزاياه.

وإذ اطمأن أعداء الله وأعداء القرآن والمتربصون بهذه الشعوب –التي كان القرآن قد جعل منها خير أمَّة– إلى أن القوم قد اتخذوا هذا القرآن مهجورًا: جاؤوا "بفركانهم المفبرك الباطل" وهم يتوقعون أن هذه الأمّة التي لم تعد تحمل القرآن إلا "بالطريقة الحماريَّة" سوف يجوز عليها باطلهم، المعزَّز بالزخرف وبالعلم، والمؤيَّد بالقوى الصناعيَّة المتحكَّمة في مصائر العالمين، القادرة على تهيئة الأجواء له، وربما فرضه على بعض الشعوب. وبهذا يحقّقون مجموعة كبيرة من الأهداف.

أولها: تحصين شعوبهم وشعوب النصرانيّة وشعوب العالم ضد الإسلام وتزويدهم بأجهزة مناعة واقية ضده، وضد انتشاره في ديارهم.

ثانيها: كسب وتنصير أو تكفير جهلة المسلمين – الذين لم يعد لديهم من الإسلام أكثر من انتماء جغرافيّ أو قوميّ أو تاريخيّ. وهم الغالبيَّة الساحقة من المسلمين اليوم.

ثالثها: فتح قلوب وعقول الشعوب الأخرى والمسلمة أيضًا إلى أنّه لا بديل بين يدي البشريَّة إلاّ "النصرانيّة" والمنظومات السائدة في ديار أهلها، فهي ديانة القوى العظمى، ولها با ع طويل في صناعة حضارتها وتقدمها، وهي ديانة صنَّاع الديمقراطية ودعاة الحريّة وحقوق الإنسان....

أما القرآن فإنّهم قد حكموا عليه بأنّه أهم منابع الإرهاب والتطرّف والتعصُّب، والصراع، واضطهاد الأقليَّات. وإيجاد الدكتاتوريِّين، وصناعة الطغاة.

فيجب تضافر البشريَّة كلها على محاصرته، وإزالته من الوجود وإحلال "المفبركان الباطل" محله!!

وماذا بعد؟

إنّ الدفاع عن النفس حق مشروع لا ينازع فيه أحد من الناس. والقرآن المجيد هو روح الإنسان المسلم ونفسه وعقله وقلبه ووجدانه، والمساس به إعدام لذلك –كلّه- ومن هنا فإنّ الدفاع عن القرآن دفاع عن النفس وعن الهُويَّة العربيَّة والإسلاميَّة. أمّا بالنسبة للعرب خاصة فإن مسئوليتهم أكبر، فإن القرآن إذا كان للعربي المسلم مصدر دين وهداية، وموصِّلًا إلى الحقيقة، فإنّه بالنسبة للعربي النصرانيّ مصدر ثقافته ولغته ووعيه بذاته القوميَّة. وعلى هذا فإن العرب كافة مطالبون بإدراك مسئوليَّة كل منهم عن القيام بشرف الدفاع عن القرآن المحفوظ إلهيًّا، الغنيّ عن دفاع المخلوقين، لكنّها "سنَّة التدافع الماضية" التي تحتِّم على حملة القرآن أن يدافعوا خصومه، ويحولوا بينهم وبين الوصول إلى حريمه وحماه. فبئس حملة القرآن من لا يعرفون للقرآن قدره وقيمته، وبئس حملة القرآن من لا يحسنون المدافعة عنه، والحيلولة بين خصومه وبين النيل منه.

ومعركة القرآن تختلف عن سائر المعارك الأخرى في طبيعتها، وفي أسلحتها، وجندها وقادتها ووسائل تحقيق النصر فيها.

كما تختلف صفحات "المدافعة" فيها عن صفحات سائر أنواع المعارك. وتختلف استراتيجيتها عن سائر أنواع الاستراتيجيّات الأخرى. وإن كانت تشارك بعض أنواعها في إجراءاتها من سَوْقٍ وتعبئة وتحصين وكر وفر ودفاع وهجوم، وما إلى ذلك.

إنّ معركة القرآن – في حقيقتها- معركة الإنسانيَّة ضد خصومها وأعدائها. ومعركة الدين ضد الإلحاد والشرك والكفر والنفاق. ومعركة القيم ضد التحلُّل، ومعركة الأخلاق ضد الفجور، ومعركة الخير ضد الشر، ومعركة الحق ضد الباطل. والصدق ضد الكذب والزور والافتراء، إنّها معركة الإرهاب والإرجاف الحقيقيَّين ضد الأمن والطمأنينة والإيمان والسلام

والإسلام، إنّها معركة سائر الأديان التي صدّق القرآن عليها وهيمن ضد الجاهليَّة والتجديف والإلحاد والزندقة. ومن خصائص هذه المعركة أنّ مواقع أطرافها واضحة وأن نتائجها محسومة مسبقًا فالنصر حليف الطرف الذي يقف إلى جانب القرآن المجيد – الذي لم يستطع أحد هزيمته عبر التاريخ، والمنهزم عدو القرآن الكريم مهما كان، حتى لو تحالفت معه الجن والإنس بكل ما لديهم من أسلحة ووسائل، فمنزِّل القرآن لم ينزِّله ليهزم، ولن يتخلى عن حفظه.

أماّ معركة المدافعة بين حملة القرآن وأعداء القرآن فتحتاج إلى ما يلي:

أولًا: رد الاعتبار إلى اللُّغة العربيَّة وإعطائها كل ما تستحقه من اهتمام، وتيسير سبل تعلّمها وتعليمها بكل ما هو ممكن من الوسائل المتاحة وما أكثرها.

ثانيًا: اعتبار إتقانها شرطًا لا تساهل فيه في تولي المسئوليَّات العامَّة، والوظائف المختلفة.

ثالثًا: العناية بترجمة مصادر ومراجع العلوم المختلفة من سائر اللّغات إلى العربيّة وتعريب المصطلحات العلميَّة، واختيار أفضل المصطلحات والمفاهيم المعبّرة عن المعاني والأفكار العلميَّة بأدق الصيغ، وأكثرها ملاءمة.

رابعًا: تعريب التعليم الجامعي بكل أنواعه من طب وصيدلة وعلوم وهندسة، وتعريب أسماء الأدوية، وغيرها.

خامسًا: استخدام "الحاسوب" وتقنياته استخدامًا يخدم العربيَّة، وجعل اللّغة العربية موازية للغات الأوربيَّة والأمريكيّة في تعاملها مع "الحاسوب" وأية أجهزة متطورة أخرى.

سادسًا: تبنِّي "منظمة التعاون الإسلامي" بكل مؤسّساتها الدعوة إلى نشر اللّغة العربيَّة في العالم الإسلامي، وتيسير ذلك بكل ما هو ممكن ومتاح من وسائل. وتجنّب تكرار الخطيئة

التي وقعت فيها الجامعة العربية سنة (١٩٥٤) حين عجزت أو تكاسلت عن تقديم المساعدات اليسيرة التي طلبتها باكستان لجعل العربيَّة لغة رسميّة لها، وتعريب البلاد.

سابعًا: على الدول العربيَّة البتروليّة أن تخصص جزءًا من إيرادات النفط لوضع تلك العائدات في بناء مؤسّسات تحت مظلة "منظمة التعاون الإسلامي" و"الجامعة العربيَّة" و"الأزهر"، و"المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية " ومجامع اللغة العربيّة وغيرها لوضع استراتيجيَّة شاملة لتحقيق ما ذكرنا.

بناء الوعي بالقرآن:

وأمَّا بناء الوعي بالقرآن لدى "الأمَّة القطب" ومن بعدها البشريَّة –كلّها – فيعتمد على أمور كثيرة، منها:

أوّلًا: أن ندرك بأنّ القرآن حين يخوض معركة ضد أي نوع من أنواع خصومه فإنّه لا ينطلق من موقع ضعف أو دفاع، بل من منطلق التحديّ والإعجاز ليسقط أسلحة خصومه –كلّها – مرّة واحدة. فهو كتاب يقرأ باسم الله وبمعيَّته يأخذه من يأخذه بقوَّة التحدي والإيمان بأنّه أمضى الأسلحة وأقواها، ولذلك فإنّ على من يحارب معركته أن يجاهد الناس به جهادًا كبيرًا. فلا سلاح أمضى منه في معركة دفاعه عن نفسه.

ثانيا: ولكي ننطلق بالقرآن من منطلق التحدي والإعجاز، ونجاهد الناس به جهادًا كبيرًا. على علمائنا ومفكرينا وحملة القرآن فينا أن يكتشفوا "الرؤية الكونيّة" للقرآن الكريم، ويتبَّنوا أبعادها ويتسلّحوا بها وبفهمها وفقهها. و"الرؤية الكونيّة القرآنيَّة" رؤية لا يصل إليها من لا يدرك "إطلاقيَّة القرآن" وأنّه لا صلة بينه وبين النسبيّة والاحتماليَّة بحال. وما ينبغي أن يسقط عليه شيء منهما.

والقرآن بإطلاقيّته قد استوعب الكون المطلق وحركته بشكل موضوعيّ فما ترك جانبًا من جوانب الخلق الإلهيّ لم يتناوله، ولم يعطه التفسير المناسب من عالم العهد حتى عالم الجنَّة والنار. كما استوعب "الإنسان المطلق" من حيث إنسانيَّته؛ فإطلاق الإنسان منصرف إلى "الحقيقة الإنسانيَّة"، لا إلى الأفراد الذين تتجسَّد تلك الحقيقة فيهم بشكل نسبيّ.

هنا يبدو القرآن كونيًّا في نظره إلى الإنسان والطبيعة والحياة والقيم، والشريعة وسائر موضوعاته، فهو غير مقيَّد في أطر الزمان والمكان والإنسان، بل هو مطلق في بنائيَّته ونظمه.

مصدّق لما بين يديه من كتاب. ومهيمن على الذكر بمراجعته ونقده وتنقيته، ومَيْزِ كل ما أضافه الناس إليه عن الحق والصدق الذين نزل بهما، ثم هيمن عليه هيمنة الحفظ الذي لا يسمح بالإضافة إليه مرة أخرى أو الحذف منه. وأنّه بخصائصه هذه التي ينفرد بها من "الإطلاق والاستيعاب والتجاوز والتصديق والهيمنة ومنهجيّته المعرفيّة"، كل أولئك خصائص جعلت منه كتابًا كونيًّا لا ينحصر في قوم أو زمان أو مكان. كما جعلت منه كتاب البشريّة الشامل العام الكامل، الذي يفسِّر بعضه بعضًا للمتدبِّرين، والذي يسَّره الله (تعالى) للذكر – للتالين المتذكرين.

والذي يستطيع أن يغوص إلى جواهره ولآلئه القادرون على الفهم العميق، والتحليل الدقيق ليصوغوا منه الخطاب العالميّ القادر على معالجة المأزق الحضاريّ العالميّ الذي يهدِّد الخليقة كلَّها.

والذين يوفقهم الله لاكتشاف "الرؤية الكونيّة القرآنيَّة" سوف يدركون بالأدلة القاطعة أنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم من الاتجاهات الوضعيّة –كلّها – مضافًا إليها التيارات اللّاهوتيَّة جميعها بتلك "الرؤية الكونيّة".

"فالوضعيَّة قد ساقت الإنسان إما إلى "جدل الإنسان الذاتيّ" وإما إلى "جدل الطبيعة الجبريّ"، وكلاهما يجرِّد الإنسان عن مقوِّماته الكونيّة؛ فإذ يؤدي "جدل الإنسان إلى تفريغ المطلق الإنسانيّ ولا محدوديَّته في العبثيَّة واللاانتماء والفرديَّة والليبراليّة يؤدي جدل الطبيعة إلى جبريّة وحتميَّة تستلب خصائص الكونيّة الإنسانيّة.

واللاّهوت قد ساق الإنسان إلى جبريَّة غيبيَّة أحاديّة حيث يستلب الغيب الإنسان والطبيعة معًا فيضيع الفارق بين المطلق والنسبيّ.[٣٧]

ثالثًا: لكي نتقدم بالقرآن إلى العالم ونتحدى الناس به نحن في حاجة إلى مراجعة تراثنا في علوم القرآن لتنقيته مما لحق به أو أضيف إليه، ومحاكمته إلى القرآن المجيد ذاته للتصديق عليه، والهيمنة على ما فيه وبعض هذه العلوم في عصور إنتاجها برهنت على مدى عناية علمائنا المتقدمين بكل ما يتعلق بالقرآن المجيد. وبعضها الآن صار يشكل عبئًا على القرآن، وكثيرًا ما يستخدمها خصوم القرآن لإثارة شيء من البلبلة في صفوف المؤمنين الذين ليس لديهم معلومات كافية عن القرآن – مثل "فنون القراءات، وتقسيم القراء أحوال الإسناد فيها إلى قراءة ورواية، وتقسيم القراءات إلى متواتر وآحاد وشاذ، فمثل هذه الأمور التي تداخلت فيها علوم الإسناد بعلوم القرآن ينبغي أن تحال إلى البحث الأكاديمي المتخصّص. ولا ينبغي أن يخرج القراء ولا دور النشر عن المصحف الإمام بحال، إذ لحسم مثل هذه القضايا كان المصحف الإمام، وتم الاجماع عليه وتعميمه على الأمّة.

ومثلها قضية حديث "الأحرف السبعة"، والمعرَّب والدخيل، فهذه أمور ينبغي ألا تخرج عن دوائر البحث الأكاديميّ المتعمِّق.

---

٣٧ انظر العالمية الإسلاميَّة الثانية /مُحَّد أبو القاسم حاج حمد(٥٠٢/١) ط. ثانية، بتقديمنا بيروت: دار ابن حزم،١٩٩٦.

ومثلها بعض الأخبار المتعلقة بجمع القرآن وتدوينه وقضايا الناسخ والمنسوخ والتعارض والترجيح فكل تلك الأمور تندرج في إطار تلك القضايا ذات الصبغة الأكاديمية. وكلّها يحتاج إلى مراجعة، وتقويم وحسم إذ إنّ هذه الأمور كما جرى تداولها في الماضي واستمر موضع استغلال للخصم، وفتنة للأبناء لا ينبغي أن تستمر أبوابها مشرعة أمام خصوم القرآن.

رابعًا: إشاعة الدراسات المقارنة بين الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن وذلك بدراسة تاريخ كل منها، وطرق نقله وحفظه، والمقارنة بين مفاهيم وتصورات كل منها للدين وللألوهيّة والربوبيّة والنبوّة والوحي والحياة الدنيا والآخرة والأمثال والقصص والتاريخ الإنسانيّ، وتصور كل منها للإنسان وللكون والمرأة والقيم والأخلاق وآثار كل منها في أهم القضايا قديمًا وحديثًا كالعلم والجزاء والعقاب، والتشريع العائليّ والمجتمعيّ والجبر والاختيار وما إليها من قضايا أساسيَّة تناولتها تلك الكتب.

خامسًا: العناية بدراسة القرآن بأشكال ميسَّرة تلاحظ في تفاصيلها الأعمار والمستويات والجنس واختلاف البيئات وما إليها. مع شيء من العناية بتفسير المفردات القرآنيَّة ببعضها كما فعل الراغب الأصفهاني في مفردات القرآن، ليكون القرآن نفسه المبيّن لمعانيه، وتستقر المعاني القرآنيَّة ذاتها في العقول، فتكون أعون على التأمُّل فيه.

سادسًا: تطوير مدارس "تحفيظ القرآن" بحيث تصبح مراكز لإيجاد إنسان القرآن، ولإحداث التنمية العقليّة والذهنيّة والنفسيّة بالقرآن، وتعليم الطلاب فيها تاريخ القرآن، والفنون التي ارتبطت به من كتابة وزخرفة، وتجويد، وخطوط بحيث توجد مجموعة من الفنون الأساسيَّة المتميزة بتأثير القرآن في البيئات المسلمة ليس فيها أي مجال للشرك، ومن المفيد إجراء بعض المقارنات مع الكتب الأخرى في هذا المجال: التوراة والإنجيل.

الخاتمة:

وبعد، فهذه بعض ملامح سبيل "الخلاص الإنساني بالقرآن" تنبِّه إلى ما بعدها، وتشير إلى غيرها، وتفتح أمام الباحثين السبيل لإنضاجها واستكمالها وإشاعتها، وإيجاد الوعي بها، لعل الله يهيئ للبشريّة أمر رشد، وينقذها من معاناتها، ويهديها سبيل الرشد، فهو القادر على ذلك، والمرجَّى له. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ملحق

ويسرنا أن نضع ملحقًا لاستفادة الأساتذة ومدرسي علوم القرآن الكريم، لعلهم يجدون فيها بدائل عن ما كان يدرس من قضايا كان ضررها على القرآن أكثر من نفعها.

برنامج الدراسات المنهجيَّة القرآنيَّة العليا

علوم القرآن

البرامج والمقرّرات الخاصَّة بـ"علوم القرآن"

المراد بـ"علوم القرآن" هي مجموعة من العلوم والمعارف التي وضعها علماؤنا المتقدّمون للتعريف بأمور تتعلق بالقرآن المجيد جمعًا وتاريخًا ونزولًا وتسويرًا وتحزيبًا وتجزئة وتفسيرًا وتأويلًا ولغة وقراءات، وأنواعًا وأسماء وصفات وكتابة ونسخًا وإعجامًا ومناسبات نزول وإحكامًا وتشابهًا وإعجازًا ونسخًا وقصصًا وأمثالًا... وما إلى ذلك.

إن القرآن الكريم هو المصدر المنشئ للعقل المسلم وللثقافة والتشريع الإسلاميّين. كما أنّه المنشئ للأمّة المسلمة، والباني لحضارتها، ولا يخفى أثره المباشر أو البيّن في سائر فروع الفكر الإسلاميّ والثقافة الإسلاميَّة وسائر مكوناتها، وله تأثير مماثل أو يزيد في علوم الفقه وأصوله وغيرها.

كما قدم القرآن الكريم لأهل العلم "المنهج التجريبيّ" وكيفيّة البحث عن الحقائق، وكان لذلك أثره في نشأة "العلوم التجريبيَّة" التي عرفتها الحضارة العربيَّة وسائر المعارف والعلوم النقليَّة الإسلاميَّة؛ بذلك "المنهج العلمي" الذي جاء به القرآن، والمناخ العقلي الذي صنعه

القرآن بعد تطهير العقل من الخرافة والشعوذة، وأوضار الجاهليَّة، فمكّنه القرآن بذلك من استيفاء الشروط النفسيَّة والاجتماعيَّة المطلوبة للبحث والإنتاج العلميّ.

ولكن ذلك لا يعني أن نعدّ أنواع هذه العلوم -كلّها-، وسائر فروع تلك الثقافة، أو نسلكها جميعًا في قائمة العلوم أو المعارف التي أسماها العلماء بـ"علوم القرآن". كما لا ينبغي أن يتبادر إلى الأذهان أنَّ المراد بـ"علوم القرآن" علوم اقتبست في مبادئها وقضاياها، وأهدافها وملكات المعنيِّين بها من القرآن المجيد؛ لأنّهم قد أطلقوا هذا المفهوم على كل علم يخدم القرآن أو يستند إليه[٣٨] كما قال الزرقانيّ؛ قال: "وينتظم في ذلك التفسير، وعلم القراءات، وعلم الرسم العثمانيّ، وعلم مجاز القرآن، وأسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن، وعلوم الدين واللُّغة، وإعجاز القرآن وأمثاله وقصصه"[٣٩] تندرج في "علوم القرآن"؛ لأنّها تخدمه من وجه أو آخر.

أهي علوم أم معارف؟

والحق أن إضافة كثير من هذه المعارف إلى كلمة "علم" أو "علوم" إضافة فيها نظر: إذ أن عامَّتها لا تعدو أن تكون مباحث يمكن أن تدرج في "علم التفسير"، لولا أنّهم حصروه بالعلم الذي يبحث في بيان معاني "مفردات القرآن"، ومع ذلك فإنّها -عند التدقيق- تعود بشكل أو بآخر إلى "التفسير واستجلاء معاني القرآن المجيد" فهي بذلك أليق؛ لأنّ من الصعب أن يطلق على كثير منها مفهوم "العلم".

---

[٣٨] مُحَمَّد عبد العظيم الزرقاني في كتابه: مناهل العرفان في علوم القرآن (٢٣/١).

[٣٩] دار أحياء الكتب العربية – الطبعة الثالثة، وراجع علوم القرآن وتاريخه للدكتور عدنان زرزور (١٨٩)ط.

الكتب المؤلفة في هذا الفن:

إنّ الكتب التي ألفت في المعارف والفنون المندرجة تحت مفهوم "علوم القرآن" كثيرة جدًا، فهناك كتب في التفسير والنظم والإعجاز والأمثال والتاريخ والناسخ والمنسوخ وفضائل القرآن وأسباب نزوله وقصصه وأحكامه، ومحكمه ومتشابهه وقراءاته وتاريخه وفضائله وغيرها مما بدأت الكتابة فيه في أواخر القرن الهجري الأول. ولكنّ الكتب التي جمعت أطراف هذه البحوث، وألفت بينها، ورتبتها بحيث ساغ أن يطلق عليها لفظ "علوم" وأن تضاف إلى القرآن الكريم كانت ثلاثة كتب جرى تداولها في المحيط التعليميّ السنيّ لهذا النوع من المعارف هي:

١- كتاب "البرهان في علوم القرآن" لبدر الدين الزركشيّ (ت: ٧٩٤هـ) تناول فيه سبعًا وأربعين نوعًا أو علمًا، وقد طبع طبعات عديدة محقّقًا وبدون تحقيق، والأكثر تداولًا من طبعاته طبعته المحققة في أربعة أجزاء حققها أبو الفضل إبراهيم يرحمه الله.

٢- كتاب "الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١) وقد تناول فيه ثمانين علمًا أو فنًا من هذه المعارف التي أدرجت تحت مفهوم "علوم القرآن"؛ وللإتقان طبعات عديدة، أكثرها تداولًا في الوقت الحاضر طبعته التي حققها أبو الفضل إبراهيم كذلك.

٣- كتاب "مناهل العرفان" للزرقاني وهو كتاب جمع ما كتبه السابقون مضافًا إليه ما قاله المعاصرون في هذا المجال وطبع مرات عديدة كذلك.

وقد تتابع المعاصرون، خاصّة أولئك الذين تولّوا تدريس هذه المادة في إعداد كتب لطلابهم لم تخرج كثيرًا عن ترديد ما ورد في الكتب المتقدّمة الثلاثة، وقد أعادوا إنتاج ذلك بلغة معاصرة تيسيرًا على الطلاب.

كما أنّ جل المفسرين قد وضعوا لتفاسيرهم مقدِّمات اشتملت على عرض وبيان مجموعة من تلك العلوم التي رأوا أهميَّة البدء بها لقراء تفاسيرهم. ومن أشمل تلك المقدمات وأهمها في تفاسير المتأخرين المقدمات العشرة في "علوم القرآن" التي قدّم ابن عاشور بها لتفسيره "التحرير والتنوير".

متى بدأ استعمال مفهوم "علوم القرآن"؟

من الصعب جدًا تحديد الوقت الذي بدأ فيه استعمال هذا المفهوم قبل شيوعه، فنسب بعض الشافعيَّة فيما نسبوه إلى الإمام الشافعي من مناقب أنّه أول من أطلق على بعض المعارف التي تندرج في هذه العلوم هذا المفهوم، وأنّه قد استعمله في حوار له مع هارون الرشيد الخليفة العباسي حين أحضر بين يديه بعد أن جيء به مخفورًا من اليمن بتهم الدعوة إلى العلويِّين وتأييدهم. وقد أكد الكاتبون في تاريخ "العلوم الإسلاميَّة" من الشيعة أنَّ أول من استعمل هذا المفهوم وكتب فيه هو الإمام مُحَّد الباقر...

وبقطع النظر عمن بدأ استعمال هذا المفهوم فإنَّ لنا في إطلاق هذا المصطلح أو المفهوم على هذه المجموعة من المعارف نظرًا؛ ذلك لأنَّ تسميتها بـ"علوم" فيه مجال كبير للنظر، فجلُّها لا تتوافر فيه مواصفات العلم، ولم يستوف مبادئه، ولم ينضبط بمناهج العلوم المعهودة.

كما أنَّ إضافتها إلى القرآن المجيد فيه مجال للنظر أكبر، وذلك لأنَّ العنوان قد يوحي للبعض بأنَّ هذه العلوم هي علوم مأخوذة من القرآن أو مستنبطة منه، وليس الأمر كذلك؛ إذ أقصى ما يمكن أن توصف به هذه العلوم أو المعارف أنّها علوم في خدمة القرآن المجيد، أو هي من وسائل خدمته.

أما العلوم التي تضمنها القرآن المجيد فإنَّها لا تقع تحت الحصر فالقرآن المجيد بإطلاقيَّته يتكشف في كل زمان عن معارف وعلوم وسنن ونواميس وقوانين بحسب السقف المعرفيّ للبشر في ذلك الزمان. ومنها قصص الأنبياء والمرسلين مع أممهم والدروس والعبر المستنبطة منها. ومؤشِّرات هامَّة في علوم الاجتماع وقوانين نهوض الأمم وتراجعها، ونظم الأخلاق، وقواعد العمران والتربية والتزكية والنظم والتشريع والتاريخ وغيرها.

التخصص الأول: علوم القرآن

تمهيد:

يتناول هذا التخصّص مفهوم الوحي وطبيعته، والوحي المحمدي بصفة خاصّة وأنواعه، وكيفيَّة نزول القرآن، والحكمة في نزوله منجَّمًا، ثم جمعه وإعادة ترتيبه توقيفًا بعيدًا عن مناسبات النزول وأسبابه. ثم يدرس الطالب فيه منهجيَّة حفظ القرآن في نظمه الداخليّ، ونقله تواترًا من جيل إلى جيل. ثم يعرض لأهم العلوم التي تخصَّصت في القرآن الكريم ومدارسها ومناهجها وبيان ما لها وما عليها، مع إجراء قراءات نموذجيّة تحليليّة لنماذج من تفاسير مطبوعة ومتاحة. وتدرس كذلك موضوعات التحدي القرآنيّ والإعجاز، وما عرف بغريب القرآن، ومفرداته وفهرسته وتكشيفه، ثم يعرض لأمثلة من بيان معاني القرآن بلغات غير عربيّة فيما يعرف بـ"ترجمة معاني القرآن الكريم". ثم يخلص التخصُّص إلى دراسة أثر البيئة والإنسان والثقافة في فهم القرآن، ومن ثم في تفسيره، وذلك في ضوء المبادئ الأساسيَّة للرسالة الخاتمة، وعالميَّتها وخصائص الخطاب القرآنيّ، وكيف يخاطب العالمين على اختلاف الزمان والمكان مع نزوله بلغة معيَّنة. وكذلك لابد من العمل على تزويد الطلاب بمنهج الكشف عن "الوحدة البنائيَّة للقرآن". ومنهجه في التعامل مع تراث الأمم السابقة، ومنهجيَّته المعرفيَّة، ونماذج لكيفيَّة التعامل معه مصدرًا منشئًا وكافيًا للمعرفة بأنواعها -كلّها- وللعقيدة والشريعة والقواعد الكليَّة، والسنن بأنواعها الكونيَّة والاجتماعيَّة. والكشف عن منهجيَّته المعرفيَّة، وحاكميّته وخصائص شريعته.

وسيشتمل هذا التخصّص على المقررات التاليَّة:

المقرّر الأول :في التعريف بالقرآن المجيد:

سيأخذ هذا المقرّر شكل حوار في "ندوات أو سمنارات" يقدم الأستاذ فيه موجزًا عن طبيعة المقرّر وأهدافه وفوائده وما يتوقع تحقيقه منه، ويكلّف الطلاب ويقودهم لتقديم فقراته التفصيليَّة وأجزائه بأنفسهم، ويأخذ الأستاذ دور الناقد والموجّه الذي يثير الأسئلة، ويناقش ما يعرض مناقشة دقيقة، وذلك لتدريب الطلاب على البحث والعرض والتحليل، وآداب البحث والمناظرة وكيفيَّة الوصول إلى الحقائق النظريَّة. ولذلك فإنَّ هذا المقرر سيكون في هيئة "سمنار في منهجيَّة التعامل مع القرآن المجيد ومعرفته":

- ويتناول هذا المساق في تفاصيله موقع القرآن من "نظريَّة المعرفة الإسلاميَّة" ومصادرها باعتباره مصدرًا منشئًا، ثم يتناول طبيعة خطاب القرآن. والقرآن وما يحمله من رسالة عالميَّة خاتمة محدِّدًا خصائص العالميَّة والخاتميَّة والحاكميَّة وآثارها المعرفيَّة والمنهجيَّة في أساليب وطرائق ومناهج التعامل مع القرآن الكريم، ثم يعرض لكيفيَّة "الجمع بين القراءتين"، وذلك بقراءة القرآن في ضوء سنن الكون وقراءة الكون في ضوء هداية القرآن. وبعد ذلك يعرض للخصائص البنائيّة للقرآن الكريم، وكيفيّة فهم وحدته البنائيّة، ووحداته الداخليَّة، والعلاقة بين أجزائه وسوره وآياته، ومنهجيَّة التعامل مع جزئيَّاته في إطار الوحدة الكليَّة له وسياقاته. ثم يخلص إلى عرض أهم المحاولات المعاصرة لتطوير منهجيَّة للتعامل مع القرآن الكريم باعتباره مصدرًا منشئًا للمعرفة الإنسانيَّة ومصدرًا للتشريع والأحكام، وكتاب عبادة وخلافه وتزكية وعمران. ويقدم بعد ذلك المنهج المقترح للتعامل مع القرآن الكريم.

- كما يتناول أسماء القرآن ودلالاتها مثل: الفرقان – الكتاب – الذكر – التنزيل – النور... إلى أخره، وبيان ما إذا كان لها أثر في الكشف عن أعمدة السور ومحاورها الأساسية.

- ويتناول كذلك ما يمكن إبراز التحدي القرآني فيه أهو في التفرُّد البلاغيّ للبيان القرآنيّ أو في صرف الناس عن محاكاته والاستجابة لتحديه، أو في أيَّة أمور أخرىٰ تعد من خصائص القرآن الكريم.

- ويتناول هذا المقرر –أيضًا– كيفية تنزيل القرآن نجومًا وما حكمة نزوله بذلك الشكل خلال ٢٣ عاماً.

- ويتناول الطلاب فيه جمع القرآن وتدوينه ومتى سمّي القرآن بالمصحف ودلالات قوله تعالى :﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾ **(القيامة: ١٧)**، وآثرها في كل ما روي من روايات ومأثورات حول جمع القرآن وتدوينه.

- ويتناول –أيضًا– أمر عثمان –رضي الله عنه– بنسخ "المصحف الإمام" من صحف حفصة وعلة ذلك وتوصيته بضرورة تجريد المصحف العثماني مما ليس بقرآن، ثم أمره بإحراق المصاحف المغايرة وتأييد عامة الصحابة له في ذلك. ثم تتابع الأجيال في تجويد المصاحف العثمانيَّة وتحسين كتابتها وبيان ما يتعلق بالتوقيف في ترتيب الآيات والسور وأسماء السور.

- ويتناول كذلك نقد الاهتمام المبالغ فيه بعلم المكي والمدني واللّيليّ والنهاريّ والصيفيّ والشتائيّ وما إلى ذلك.

- ويتناول هذا السمنار أيضًا علم "الناسخ والمنسوخ" ما له وما عليه وكيف نشأت أفكار النسخ حتى تحول إلى نظريَّة ثابتة في علوم القرآن .

وتجلية جانب البعد التاريخيّ في دراسات "الظاهرة القرآنيَّة" وبيان أهمية علم "أسباب النزول والمناسبات" ومناقشة دعوى النسبية والتاريخانيَّة وردها.

- ويتناول السمنار -أيضًا- قضية "الأحرف السبعة" وعلم "المحكم والمتشابه" باعتبارهما من الموضوعات المعلّقة في دراسات علوم القرآن، والتي صارت تستدعي حلًا حاسمًا، وقولًا نهائيًا فيها.

المقرر الثاني:التفسير ومدارسه واتجاهاته:

يتناول هذا المقرر أنواع التفسير ومدارسه المختلفة وحقيقته، وتاريخه، ويقدم نماذج من تفاسير تلك المدارس وأصحابها ويقوم بالعرض والتحليل والنقض وذلك في إطار الموضوعات التالية:

- مدرسة تفسير البيان بالبيان أو القرآن بالبيان: الاتجاه اللُّغويّ – تفسير الزمخشري نموذجًا مع التعرّض للتأثير المتبادل بين علوم اللّغة العربيَّة وعلوم القرآن.
- مدرسة تفسير القرآن بالمأثور: المنحى النقليّ – الطبريُّ وابن كثير – والدر المنثور نماذج لذلك.
- مدرسة تفسير القرآن بالإشارة: التوجُّه الصوفيّ والعرفانيّ – ابن عجيبة في تفسيره وابن عربي في تفسيره والقشيري في لطائفه نماذج لذلك.
- مدى إمكان الجمع بين الاتجاهات الثلاثة فيما يمكن أن يسمى بـ"منهج أو اتجاه التفسير التكامليّ".
- عرض نماذج من التفاسير المعاصرة ومناقشتها: تفسير المنار، تفسير ابن عاشور، تفسير الشعراوي، في ظلال القرآن، تفسير القرآن بالقرآن، تفسير عبد الرحمن بن سعدي، نماذج من محاولات متنوعة أخرى.
- محاولات البقاعي في نظم الدرر، ثم عبد الحميد الفراهي في إبراز أهميَّة التناسب، والكشف عن عمود السورة.

- منهجية النظرة الكلية إلى القرآن باعتباره مستوعبًا للكون وحركته، وبوصفه خطابًا يتحرك في آفاق الإحالات والمعاني المتبادلة بين اللغة والأثر والذوق.

مناقشة الزعم القائل بوجود تعارض أو ما يوهم التعارض في الخطاب القرآنيّ، وبيان الوسائل التي اتبعها المسلمون في الخروج من ذلك فيما عرف تاريخيًّا بـ"مشكل القرآن" تلك الآلية التي اشتملت على ملاحظة "الوحدة البنائية" مما يؤدي إلى عرض آيات الكتاب الكريم بعضها على البعض الآخر لإزالة ما يوهم التعارض؛ لأنَّ القرآن يفسّر بعضه بعضًا ويفصل بعضه بعضًا ويبيّن بعضه بعضًا.

عرض الآيات التي يتوهم وقوع التعارض بينها على الأحاديث النبوية المرفوعة الصحيحة والأحاديث القدسيّة الثابتة، وعرض الحديث النبويّ والحديث القدسيّ على القرآن لإزالة الإبهام والتخلُّص مما يوهم التعارض والتوكيد على الصحة وتدريب الطلاب على ضرورة الجمع بين القرآن المجيد والبيان النبويّ له بكل أنواعه.

التأويل:

وهو من الأسس التي كان المتقدمون يلجؤون إليها لنفي التعارض عما يوهم التعارض، وقد فسر بأنه استدعاء للمعنى المستور، أو أنَّه كشف للمحذوف الكامن وراء المثبت؛ لأنَّ ما يثبته النصُّ يخدم ما يحذفه، وما يحذفه يخدم ما يثبته وهما -معًا- أي المثبت والمحذوف يتمان فكرة الحضور.

المقرر الثالث: القرآن والإيمان:

- يتناول هذا المقرر "الإيمان والعقيدة" كما يعرضها القرآن الكريم قبل أن تتعرض لإضافة عناصر كثيرة لأسباب مختلفة، ويوضح العلاقة بين القرآن المجيد وعلم الكلام، ويتناول الظروف الفكريَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة لنشأة "علم الكلام"، ودوره الإيجابي في بداياته في توضيح أركان "العقيدة الإسلامية" وجوانبها العديدة، وفي بناء "الرؤية الكلية" والإجابة الدقيقة على "الأسئلة النهائيَّة"، وبناء النظام المعرفيّ. ثم يتم تحديد جوانب العلاقة بينه وبين الفلسفة، ويعرض لأهم الإسهامات الأولى في هذا العلم والمقاصد التي وضع من أجلها .

- ثم يتناول تطور العلم وتحوله في إطار عقلية (تأزيم الحلول) إلى مفرق تنقسم عنده الأمة إلى فرق وشيع وأحزاب. ويدرس المقرّر نشأة أهم هذه الفرق الكلاميَّة، ومحاور الاختلاف بينها، والمؤثّرات التي أدت إلى ذلك، ثم يتناول ضرورة هذا العلم في تحليل وتقويم مختلف العقائد الدينيَّة. ثم يعرض لأهم قضايا "علم الكلام" سواء المتعلقة بالله (سبحانه وتعالى)، أو بأفعال العباد، أو بالمشيئة الإنسانيَّة، ونظريَّة التكليف، ومصادر تقييم الفعل الإنسانيّ ومعاييره؛ ليؤدي هذا المساق إلى تطوير رؤية قرآنيَّة معاصرة للعقيدة، ويفصل بينها وبين علم الكلام بحيث تتجاوز القضايا والإشكاليات القديمة التي لم يعد لمعظمها وجود في الواقع المشهود. وتحويل علم الكلام إلى علم يجيب على "الأسئلة الكليَّة والإشكاليَّات النهائيَّة" للوجود الإنساني في الكون؛ مثل مصدر الوجود البشريّ، وغايته وسببه، وكيفيّة تنظيمه وطبيعته، ومداه ونهايته والمبرّر والمسوّغ لوجوده... الخ، وكيفية تجديد هذا العلم وتحليل قضاياه وإعادة تركيبه وقراءته

قراءة معرفيّة؛ ليكون كما كان في بداياته وسيلة لبناء الرؤية الكليَّة الإسلاميَّة المعاصرة، والتصور السليم، وتجديد النموذج المعرفيّ الإسلاميّ.

- وفي الوقت نفسه يتم تجريد مباحث العقيدة وقضايا الإيمان وأركانه ومقوماته لترتبط بالقرآن المجيد القطعي في ثبوته ودلالاته لئلا تخبو جذوة الإيمان في قلوب أهله.

- كما أنّ المقرر سيركز على بعض القضايا التي يحتاج متخصصون في العلوم الإسلامية لوضوح الرؤية فيها انطلاقًا من القرآن المجيد مثل قضايا الجبر والاختيار وقدم القرآن والصفات الإلهيَّة والأصول الخمسة لأهل الاعتزال والعدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودليل العقل عندهم وترجيحهم العقل على النقل وآثار ذلك في فكر المسلمين.

- كما يسعى المقرر لبيان قيمة محاولة الأشاعرة إقامة توازن فلسفيّ توفيقيّ للتوسط بين العقل والنقل باعتبارهم الوحي مصدرًا للتكليف والعقل مصدرًا للمعرفة.

- وتناول ما عرف بـ"نظريَّة الكسب" لدى الأشاعرة وكيف اعتبروها نظريَّة توفيقيَّة وسطيَّة بين الجبر والاختيار.

- تناول ما عرف بـ"نظريَّة الكلام النفسيّ" للتوفيق بين الإيمان بقدم الكلام الإلهيّ بمعانيه ومحتوياته وحدوث الحروف والأصوات للوصول إلى نظريَّة وسطيَّة بين القول بقدم القرآن وخلقه.

إثبات الأشاعرة للوجود الحسِّيّ لله (سبحانه وتعالى) بلا كيف ولا تشبيه. ازدهار الأشعرية وإضفاء مزيد من العقلانية عليها وذكر جهود روادها الكبار في هذا المجال وفي مقدمتهم أبو الحس الأشعري والقاضي الباقلاني وإمام الحرمين الجويني والغزالي مع الإشارة إلى أية فروق قد تكون قائمة بين أشعرية المشرق والمغرب.

المقرر الرابع: القرآن وعلم الاجتماع الدينيّ:

يعني "علم الاجتماع" عمومًا بدراسة المجتمع كنسق منظم للعلاقات الاجتماعية، ودراسة التفاعل الاجتماعيّ بين الأفراد والجماعات والطبقات الاجتماعيَّة المختلفة. أما علم الاجتماع الدينيّ تحديدًا، فيدرس، في رأي المنظِّرين له، تأثير الدين في المجتمع والثقافة والشخصيَّة، كما أنه، بحسب اعتقادهم، يدرس عددًا من الحقول مثل: وظيفة الطقوس الدينيَّة في المجتمع، تصنيف التنظيمات الدينيَّة، استجابة هذه التنظيمات للنظام الاجتماعيّ العام، أثر الحركات الدينيَّة في المجتمع... الخ. السؤال الأساسي في علم الاجتماع الدينيّ: ما هي العناصر السوسيولوجية والثقافية في الدين؟ وليس هناك في الحقيقة ما يسمى بعلم الاجتماع المسيحي أو علم الاجتماع اليهودي أو علم الاجتماع الهندوسي في مجالات النظريَّة الاجتماعيَّة. ولكن كل دين يضفي خصوصيَّاته، بالضرورة، على علم الاجتماع الديني عند المشتغل به، كل بحسب عقيدته الدينيَّة. ولذلك فضلنا عدم استعمال عنوان "علم الاجتماع الإسلامي"، وأثبتنا فقط مرجعيَّته: القرآن الكريم. ومن البدهي عندنا أنّ علم الاجتماع الدينيّ عند علي شريعتي مثلًا هو علم اجتماع إسلامي، وأن علم الاجتماع الديني عند "إميل دور كايم" هو علم اجتماع مسيحيّ... وهكذا .

ومقرر "القرآن وعلم الاجتماع الدينيّ"، يمكن له أن يتوزع على عدد من الأفكار والموضوعات والمضامين الرئيسية كالآتي :

١. القرآن وبناء المجتمع على أساس من القيم القرآنيَّة بوضع مفهوم "الأمَّة" في القرآن.

٢. "الأمة" بوصفها مجتمعًا ذا مستويات ثقافيَّة وعرقيَّة مختلفة تحت مظلة منظومة واحدة من القيم التي يشكل "التوحيد" درة عقدها.

٣. مفهوم "العمران" في القرآن، ودوره، وغايته.

٤. بناء الأسرة في القرآن، ودورها، وغايتها.

٥. الاتصال الجماعيّ Social Contact في القرآن: الاتجاهات والقيم والأدوار.

٦. التكامل الاجتماعيّ Social Integration في القرآن: الأنماط المعياريَّة، والعمليّات الدافعيَّة، والتوازن الوظيفيّ.

٧. الضبط الاجتماعيّ :Social Control الحدود في القرآن.

٨. الضبط الذاتيّ :Self- Control الامتثال للمعايير بوحي من الإيمان والضمير.

٩. القوامة الاجتماعية: الوالي- الفقيه- المحتسب - الزوج. مفهوم "ولي الأمر" في القرآن.

١٠. التماسك الاجتماعيّ: مفهوم الجماعة في القرآن.

١١. إصلاح ذات البين في القرآن وعلم "فضّ المنازعات".

١٢. رد الفئة الباغية عن غيها: مواجهة الظلم في القرآن.

١٣. تقويض القيم الاجتماعية السلبية في القرآن: الأنانية- شراهة التملك- إغماد حق- اليتيم والمسكين والسائل.

١٤. الزكاة: تزكية رأس المال الفردي في القرآن.

١٥. الصدقات في القرآن: تقليص ظاهرة الفقر.

١٦. مفهوم البر وصلة الرحم في القرآن: التفاعل المجتمعي.

١٧. نظام المواريث في القرآن: تأثير الترابط المجتمعي على قوة الترابط الاجتماعي.

المقرر الخامس: القرآن ومشكلات العالم المعاصر:

- مقرر يتناول أبرز مشكلات العالم المعاصر، وأكثرها حدة وتأثيرًا، ويؤسس للحلول التي أقرها القرآن ضمنًا لمعالجة هذه المشكلات انطلاقًا من روح مبادئه، ومعرفته بأمراض النفس وأهوائها، وأدواء العقول والغرائز، جماعات وأفرادًا.

ونقترح أن يأخذ المقرر الشكل التالي:

- هل هناك عقيدة للتطور؟ (النمو إلى الخلف).
- قانون الصواب أم قانون الصلاحية: مسألة عولمة القيم (حداثة الآلة/ آلة ما بعد الحداثة).

- مشكلة الفقر.
- مشكلة المرض.
- مشكلة تدمير البيئة.
- مشكلة السوق الاحتكاري.
- مشكلة الصراع العرقي والطائفي.
- مشكلة السيطرة ذات القطبية الواحدة (الاختلال في توازن القوى.(
- مشكلة تهميش الحاجة الروحية، واستبعاد الضمير الأخلاقي لصالح العلم.
- مشكلة العنف.

- مشكلة التفكك الأسري.
- مشكلة الإدمان.
- مشكلة تعليب الوعي وتغييبه، والتلاعب الإعلاميّ بالعقول.
- مشكلة المجتمع السلعيّ، وغواية الإعلان.
- مشكلة إساءة استخدام مفهوم الحريَّة (حريَّة التعبير- حرية الجنس- حرية الكسب...الخ).
- مشكلة التهديد النووي، وكابوس الفناء الإنساني

- مقاربات القرآن لموضوعات: التطور- التجديد – التجدّد -الصواب- والصلاحية- الرفاه- سلامة الجسد- المحافظة على توازنات الطبيعة- وظيفة الثروة، والقسمة العادلة- السلام الاجتماعي والدولي- إعلاء الحاجة النفسيَّة والروحيَّة- ترشيد الضمير الأخلاقي للعلم- استئصال العنف- يقظة العقل وغيابه- نبذ الغش والكذب- محاربة الرغبة الاستهلاكية عند الإنسان- الحرية وشروطها- تقويض جنون القوة، والقضاء على احتمالات تدمير العمران في الأرض.

مقررات للاطلاع وتدريب الطلاب على مناقشة القضايا المختلفة في إطار ندوات لمدة يومين يشارك فيها الأساتذة والطلاب معًا. ويمكن أن توجه الدعوة لعناصر مختارة يمكن أن تساهم في المناقشات في هذه الأمور، منها :

المقرّر السادس: النبوة ونظريات السياسة في القرآن:

ينبع سلوك النبوة، بتفصيلاته كافة، من مبادئ أساسية طرحها القرآن الكريم بما هي لبنات لصرح شامل من أخلاقيات التعامل مع الواقع، ومعالجة مشاكله، وإدارة أزماته، وتحتل المبادئ السياسية في القرآن موقعًا مهمًا ضمن مجموعة المبادئ العامة، وتشكل روح الفعل في السنة النبوية المطهرة. ويربط هذا المقرر بين منظومة هذه المبادئ السياسية القرآنية وأفعال النبوة وتوجهاتها على نحوٍ مفصل كالآتي:

١. السياسة الداخلية من المنظور النبوي:

أ- نظام الإنتاج التعاوني ومفهوم المراقبة.

﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ..﴾ (التوبة:١٠٥).

" ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود –عليه السلام- كان يأكل من عمل يده"[٤٠].

ب- الولاية ومفهوم المسئولية.

- **﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ (النجم:٣٩-٤٠).**

- **﴿.. وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ..﴾ (النساء:٥٨).**

- "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"[٤١].

- "من جعل قاضيًا بين الناس فقد ذبح بغير سكين".

---

[٤٠] رواه البخاري، كتاب "البيوع"، باب "كسب الرجل وعمله بيده"، حديث رقم: (١٩٦٦).

[٤١] رواه البخاري، كتاب "الجمعة"، باب "الجمعة في القرى والمدن"، حديث رقم (٨٥٣).

ج- الشورى.

- ﴿.. **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ..﴾ **(الشورى:٣٨)**.

- "إذا كان امراؤكم خياركم،.. وأموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من باطنها..."[٤٢].

د- الجماعة.

- ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ** ..﴾ **(آل عمران:١٠٣)**.

- "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة الجاهلية .."[٤٣].

هـ- تدوير المال.

- ﴿.. **كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ** ..﴾ **(الحشر:٧)**.

- "الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون"[٤٤].

- كل مال حسرة على صاحبه يوم القيامة، إلا من قال به هكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله، ومن أمامه ومن خلفه".

- "من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له"[٤٥].

٢. السياسة الخارجية من المنظور النبوي:

---

[٤٢] رواه الترمذي، حديث رقم (٢٢٦٦).

[٤٣] رواه مسلم، كتاب "الإمارة"، باب "الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن"، حديث رقم (٤٨٩٢، ٤٨٩٤).

[٤٤] سنن ابن ماجة، كتاب "التجارات"، باب "الحكرة والجلب"، حديث رقم (٢١٥٣).

[٤٥] رواه مسلم، كتاب "اللقطة"، باب "استحباب المؤاساة بفضول المال"، حديث رقم (٤٦١٤).

•الجهاد.

- ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ..﴾ (البقرة:١٩٠).
- "وإذا استنفرتم فانفروا .."[٤٦].

- جاء رجل فقال: "يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: "لا أجده"[٤٧].

•المواثيق.

- ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ..﴾ (النحل:٩١).

- "من قتل معاهدًا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة .."[٤٨].

- "لكل غادر لواء يوم القيامة ينصب له بقدر غدره"[٤٩].

•قبول الآخر.

- ﴿.. لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ..﴾(المائدة:٤٨).

- "الأنبياء أخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد"[٥٠].

---

[٤٦] رواه البخاري، أبواب "الإحصار وجزاء الصيد"، باب "لا يحل القتال بمكة" حديث رقم (١٧٣٧).

[٤٧] رواه البخاري، كتاب "الجهاد والسير"، باب "فضل الجهاد والسير"، حديث رقم (٢٦٣٣).

[٤٨] رواه الترمذي، حديث رقم (١٤٠٣) بلفظ: "ألا من قتل نفسًا معاهدة له ذمة الله ..".

[٤٩] رواه البخاري، كتاب "الحيل"، باب "إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضى بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها فهي له ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمنًا"، حديث رقم (٦٥٦٥).

[٥٠] رواه مسلم، كتاب "الفضائل"، باب "فضائل عيسى عليه السلام"، حديث رقم (٦٢٨١) بلفظ: "الأنبياء إخوة من علات ..".

- بعثت إلى الناس كافة، فإن لم يستجيبوا لي، فإلى العرب، فإن لم يستجيبوا لي فإلي بني هاشم، فإن لم يستجيبوا لي فإلى وحدي"[٥١].

- "كل ميسر لما خلق له"[٥٢].

المقرر السابع والثامن: البرنامج التدريبي لمادة مناهج النظر ومهارات البحث ودراسات المرأة من منظور إسلامي معاصر.

---

[٥١] طبقات ابن سعد، (١٩٢/١).

[٥٢] رواه البخاري، كتاب "التوحيد"، باب "قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ (**القمر: ٢٢**)"، حديث رقم (٧١١٢).

قائمة المحتويات

الصفحة

- القرآن والتفسير أيحتاج القرآن إلى تفسير؟
- مقدمة في تفسير القرآن بالقرآن:
- الجمع بين القراءتين:
- معوقات تحول بين القارئ وبين القراءة التي سماها الله (جل شأنه) بالتلاوة
- مقدمات يجب على القارئ أن يعيها في ولوجه للقرآن الكريم
- "المفبركان الباطل" لا "الفرقان الحق"
- المقدمة
- "المفبركان الباطل" لا "الفرقان الحق"
- اعتداء على البشرية كلها
- القرآن حافظ رسالات الله كلها
- حفظ الله القرآن وعصمته له
- المحاولات الفاشلة للنيل من القرآن
- الفرضيات الخاطئة
- "المفبركان الباطل" لا ينتمي إلى أي دين
- بعض محاولات أسلاف كذابي العصر
- تحدي القرآن
- نظم القرآن حافظه الداخلي
- عصمة القرآن من أي نوع من التحريف
- إرهاصات سبقت تأليف "المفبركان الباطل"

- توظيف الدين أم اتخاذه مرجعية؟
- خطوات تنفيذية
- منظمة الأديان المتحدة
- صلوات مشتركة
- درس من الأمم المتحدة
- "المفبركان الباطل"
- وليم جلادستون والقرآن
- المفاهيم الخاطئة
- تغييب مفهوم الأمة
- إنهم يعرفون أهمية القرآن وفاعليته

أزمات الإنسانية والحل القرآني

- الأمة واستجلاء معاني القرآن
- العلوم النقلية
- إطلاقية القرآن والمعارف النقلية
- سبيل الخلاص هدف عالمي
- نقطة البداية في فهم الحالة الراهنة
- ضرورة بذل الجهود المعرفية لتنقية التراث
- الديمقراطية والحل
- الإنسان حيوان إعلامي
- ماذا عن أمتنا؟
- العولمة وما تعنيه
- الارتداد إلى الموروث
- فهل يكون الحل علميًّا
- أين الخلاص؟

- خطابات التغيير الأخرى
- الأمة القطب بمجموعها وخصائصها
- فما هي أهم خصائص التكوين
- ما الذي يستلزمة ذلك؟
- الأمة بين جور النظم وافتات التنظيمات
- منكم لا عليكم
- الاستبداد لا يأتي بخير
- ظاهرة الصراع العربي الصهيوني ودلالاتها
- فماذا عن أهل القرآن؟
- بعض أسباب الفصام الحالي بين القرآن وحملته
- وماذا بعد؟
- بناء الوعي القرآني
- الخاتمة
- ملحق: برنامج الدراسات المنهجيَّة القرآنيَّة العليا "علوم القرآن".